

# وَضَائِفَةُ الْأَسْتِخْلَافِ

فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

دَلَالَتِهَا وَأَبْعَادُهَا الْحَضَارِيَّةُ

د. مُحَمَّدُ زَرْمَانُ

كَلِمَةُ الْأَرَابِ وَالْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ

جَامِعَةُ بَاتَنَةِ / الْجَزَائِرِ

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي  
أسكنه الله الفردوس  
[www.moswarat.com](http://www.moswarat.com)

# وَظِيْفَةُ الاسْتِخْلَافِ

فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ

دَلَالَاتُهَا وَأَبْعَادُهَا الْحَضَارِيَّةُ

د. مُحَمَّدُ زَرْمَانُ

كَلِيْمَةُ الْآدَابِ وَالْعُلُومِ الْإِنْسَانِيَّةِ  
جَامِعَةُ بَاتَنَةِ / الْجَزَائِرِ



مفوق الطبع محفوظ  
الطبعة الأولى  
١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م

دار الأعلام

الأردن - عمان - العبدلي - مركز جوهرة القدس - الطابق ٢ مكتب ٦٠٥  
هاتف ٤٦٥٧٤٦٨ - ٠٦ فاكس ٤٦٥٧٤٦٩ - ١٦ خلوي ٥٦٥٢٨٠٤ - ٧٩ - ٠٠٩٦٢  
ص. ب. ٩٢٧٥٦٣ عمان ١١١٩٠ الأردن  
E-Mail: AL\_AALAM@YAHOO.COM

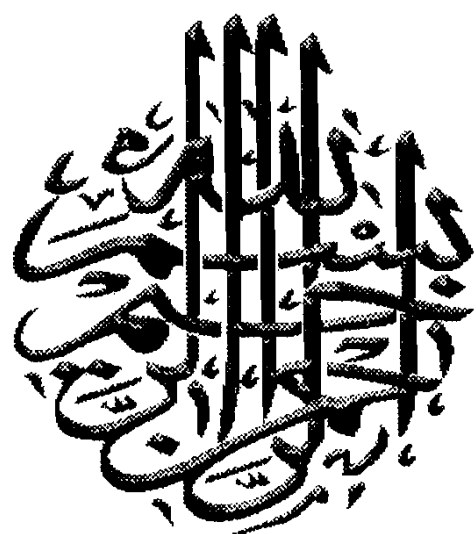
بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

البقرة 30

﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾

الأحزاب 72



## المقدمة

إن التأمل في سر هذا الوجود العظيم يدرك أن هذا الكون الفسيح البديع بأرضه وسماؤه ، ومائه وهوائه ، وبحاره وأنهاره ومخلوقاته الكثيرة المتنوعة الأجناس ، المختلفة الأحجام والأشكال قد خلقه الله سبحانه وتعالى من أجل الإنسان ، وسخره له تسخييرا ، ليستغل ثرواته ، وينتفع بخيراته ، ويتمتع بجماله ويتصرف في كل شؤونه وفقا لإرادة الله تعالى ، فكان بذلك سيد هذا الكون بلا منازع .

ولعل أعظم نعمة كرم الله بها الإنسان وفضله بها على جميع المخلوقات نعمة العقل الذي يمكنه من القيام بجميع العمليات العقلية المختلفة كالتذكر ، والتخيل ، والتركيب ، والتحليل والملاحظة ، والاستقراء ، والمقارنة ، والاستنتاج ، والابداع والابتكار . وهو أيضا الجهاز العجيب الذي ينتج المعرفة التي تسهل له فتح مغاليق الكون ، وتكشف له أسرار الطبيعة ، وترتقي به في مدارج الحضارة .

وعلى الرغم من هذه النعم العظيمة ، إلا أن الله سبحانه وتعالى لم يترك الإنسان هملا يسير في دروب هذه الحياة بأهوائه

ورغباته دون دليل أو هاد ، بل شمله بعنايته ولطفه فشرفه بنعمة أخرى هي نعمة الوحي ، إذ أرسل إليه الرسل ، وأنزل له الكتب وشرع له الشرائع لتبقى حركته دائما مرتبطة بالسماء ، تنير له السبل ، وتقيه المزالق ومواطن الزلل .

وأمام كل هذا يتساءل المرء عن الحكمة من هذا التكريم الرباني للإنسان في هذه الحياة ؟ إن النصوص القرآنية تجمع على أن الإنسان لم يُخلَق عبثا كما يذهب إلى ذلك الماديون والملحدون . بل إن الله قد أوجده من أجل مهمة سامية في الحياة ، وحمله أمانة ثقيلة عجزت عن حملها السموات والأرض وقبلها الإنسان ، إنها أمانة الاستخلاف في الأرض : >> وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة << .

والذي دفعنا إلى الكتابة في هذا الموضوع جملة من الأسباب والدواعي نشير هنا إلى بعضها :

– الرغبة في استجلاء حقيقة الوظيفة الاستخلافية في الخطاب القرآني ، ومعرفة قيمتها ومدلولاتها وأبعادها الحضارية وإدراك ضوابطها ومجالها وشروطها ، وبخاصة وأن القرآن الكريم



جاء كله من أجل الإنسان ، يشرح له مهمته الوجودية بالتفصيل والتدقيق في جميع ميادين الحياة .

- الرغبة في تنبيه الإنسان المسلم إلى مهمته الحقيقية التي طلب منه القيام بها على أحسن الوجوه . إذ لا بد له من معرفتها كاملة ، وفهم مقاصدها وأسرارها وغاياتها ، وإدراك مدى ثقلها وعظمتها حتى يستطيع أن يسهم في الإقلاع الحضاري للعالم الإسلامي اليوم ، ويخلصه من المغلوبيّة الحضارية التي يتخبط فيها . ذلك أن جهله بهذه الوظيفة السامية جعله إنساناً مشلولاً ، عاجزاً عن الحركة البناءة والفعل الحضاري ، حيث غلبت عليه السلبية والانهازية ، فأصبح كائناً عاطلاً يستهلك ولا ينتج ، لا يحترم الوقت ، ولا يتقن العمل ، كلاً على أعدائه في مأكله ومشربه وملبسه ودوائه ، مُهَدِّدًا في شخصيته الحضارية في زمن أحاطت فيه شباك العولمة والهيمنة الغربية بالعالم كله .

- محاولة إثراء مكتبة الدراسات الحضارية في العالم الإسلامي ، والمتعلقة بتفعيل دور الإنسان المسلم اليوم في بناء الحضارة وعمارة الأرض وفق الرؤية القرآنية ، وبخاصة الدراسات والأبحاث التي أنتجها المفكر الإسلامي مالك بن نبي وتبعتها جهود

نخبة من المفكرين المخلصين في العالم لإسلامي ومنها إسهامات رجالات المعهد العالمي للفكر الإسلامي بواشنطن ، والعديد من المؤسسات الإسلامية التي ما فتئت تبذل جهودا محمودة في سبيل إعادة تشكيل وصياغة الإنسان المسلم لكي يضطلع برسالته الحضارية .

فكيف إذن تحدث القرآن الكريم عن وظيفة الاستخلاف ؟ ولماذا أولاهما كل هذا الاهتمام ؟ وماهي أبعادها ودلالاتها الحضارية ؟ وما علاقة الوظيفة الاستخلافية بالعبادة ؟ وهل يمكن للإنسان أن يقوم بوظيفة الاستخلاف بعيدا عن هداية الوحي ؟ ولماذا جعل الله الأرض ميدان الاستخلاف ؟ وهل العلم شرط ضروري لتحقيق وظيفة الاستخلاف ؟ .

إن الإجابة - عن هذه الأسئلة المختلفة ستسهم - إلى حد بعيد - في تقديم صورة واضحة المعالم ومتكاملة الجوانب عن حقيقة الوظيفة الاستخلافية كما أرادها الله سبحانه وتعالى للإنسان وصورها في القرآن الكريم .

ومما لا شك فيه أن الفكر الإسلامي الحديث لم يهمل مثل هذا الموضوع كما أشرنا آنفا . بل هناك عشرات الدراسات

والأبحاث التي عاجلت قضية الإنسان والاستخلاف ، وصدرت في ذلك مجموعة هامة من الكتب منها : « الإنسان الكامل » لمحمد إقبال، و« الإنسان في القرآن » لعباس محمود العقاد و « القرآن وقضايا الإنسان » و « مقال في الإنسان » لعائشة عبد الرحمن و « الإنسان والقرآن » لمرتضي مطهري ، و « الإنسان والكون في الإسلام » لأبي الوفا الغنيمي التفتازاني و « استخلاف الإنسان في الأرض » لفاروق أحمد دسوقي و « آدم عليه السلام » للبهى الخولي ، و « حقيقة الإنسان بين القرآن وتصور العلوم » لأبي اليزيد العجمي ، و « مبدأ الإنسان » و « قيمة الإنسان » لعبد المجيد النجار وغيرها .

غير أن معظم هذه الدراسات - في اعتقادنا - ركزت كثيرا على الجزئيات والتفصيلات ، وتعمقت في قضايا معينة تتعلق بقضايا الإنسان المختلفة مبدأ ، و حقيقة وقيمة وغاية ومصيرا أفقدتها الوحدة الموضوعية ، أما محاولتنا هذه فقد اهتمت كثيرا بالجوانب الأساسية لهذه الوظيفة ، وحاولت تنبيه الإنسان المسلم إلى مهمته الحقيقية بنوع من الإلحاح والتأكيد اللذين يوحيان

بكونها فريضة شرعية دينية تؤكدها النصوص القرآنية الصريحة وفي الوقت نفسه ضرورة واقعية يفرضها العصر .

وهذا الكتاب الذي بين أيدينا بفصوله السبعة يؤكد هذه الحقيقة ، فقد تناولنا في الفصل الأول دور الإنسان في حركة الاستخلاف ، ولماذا اختاره الله تعالى وفضله على باقي المخلوقات ليقوم بهذه الوظيفة . أما الفصل الثاني فقد تحدثنا فيه عن مفهوم الاستخلاف وأهميته ، وبيننا أبعاده ومدلولاته المختلفة وخصصنا الفصل الثالث للعلاقة التي تربط الاستخلاف بالشعائر التعبدية وبيننا أنها علاقة وثيقة ، ووضحنا كيف يمكن اعتبار الاستخلاف عبادة كبرى ، والشعائر الدينية عبادة صغرى ، بحيث تنتظم حركة الإنسان كلها في إطار العبودية الكاملة لله تعالى . ودار الحديث في الفصل الرابع حول ركني الوظيفة الاستخلافية وهما الإيمان والعمران اللذان يعدان وجهان لعملة واحدة ، إذ لا يمكن فصل أحدهما عن الآخر ، فهما يكونان عملية متكاملة مترابطة تنتج عنها الحضارة الحقيقية . أما الفصل الخامس فقد خصصناه للحديث عن الأرض باعتبارها الميدان المناسب الذي حدّده الله تعالى للإنسان ليمارس فيه نشاطه الاستخلافي ، حيث مهّدها له

وذلكها ، وزوده - في المقابل - بالامكانات التي تتيح له تسخير ثرواتها ، وبذلك لم يجعلها لغزا مستغلقا ومعجزا ، كما لم ييسرها له تيسيرا تاما يركن معه إلى الكسل والسلبية . وتناولنا في الفصل السادس دور العلم في تحقيق رسالة الاستخلاف مصداقا لقوله تعالى : << وعلم آدم الأسماء كلها >> . وكان الفصل السابع والأخير يدور حول أهمية الوحي في هداية الإنسان . وهو يقوم بوظيفته الإستخلافية . فالوحي هو المنهاج الرباني الذي يحمي الإنسان من أي انحراف مادي أو روحي ، وإذا تخلى عنه فسيضل حتما وينحرف : إما نحو المادية الجافة أو الرهبانية المتطرفة وبذلك تفقد الوظيفة الاستخلافية أصالتها .

وفي الختام ، نرجو أن يكون هذا الجهد المتواضع لبنة في مكتبة الدراسات القرآنية ، تسهم في توعية الإنسان المسلم وإنارة الدرب أمامه لكي يدرك وظيفته في هذه الحياة ، ويتخلص من العبثية والفوضى التي تجعل منه عنصرا سلبيا غير قادر على بناء الحضارة وعمارة الأرض ، والقيام بأعباء الاستخلاف كما أراد الله منه ، وبذلك تتحقق الغاية العليا من وجوده .

باتنة في 20 مارس 2002



رفع  
عبد الرحمن النجدي  
أسكنه الله الفردوس  
www.moswarat.com

# الفصل الأول

## موقعة الإنسان في

### حركة الاستخلاف





شهد العالم الإسلامي في العصر الحديث ظهور حركة نهضوية عامة سعت إلى تخليصه من آثار التخلف والانحطاط ، و مواجهة تحديات الحضارة الغربية الحديثة . وقد بُدِلت - في سبيل تحقيق هذا الهدف - جهود كثيرة على مستويات مختلفة وكانت الثغرة التي عانت منها أغلب هذه الجهود - على اختلاف توجهاتها - إغفالها للإنسان كعنصر أساس في التغيير و التنمية ، و عامل فعال في النهوض الحضاري .

وقد أثبتت محاولات النهوض المتكررة التي بُدِلت - منذ أكثر من قرنين - للخروج من المأزق الحضاري ، أنه لا يمكن تحقيق ما تصبو إليه الأمة من التقدم والتطور إلا إذا كان الاهتمام ببناء الإنسان أولوية أساسية من أولويات التنمية بعد ما تأكدت أهميته القصوى ودوره الرائد في الإعمار والبناء الحضاري .

لذلك فإن ما تقوم به الدول الإسلامية اليوم من استيراد وتكديس للمنتجات التقنية الحديثة بغية تحقيق التطور والتنمية المطلوبة ، ليس هو الطريق الأمثل للخروج بالمجتمعات الإسلامية من وهدة التخلف . فما لم تركز مشاريع التنمية على تكوين الإنسان وتهيئته وإعداده بتغيير تركيبته النفسية البالية بمحتوى جديد يعث فيه روح الحركة وإرادة التغيير لن

تستطيع عربة التطور أن تسير فوق سكتها الحقيقية لتبلغ هدفها المنشود. ذلك أن : >> الحضارة هي التي تصنع المنتجات ، وليست المنتجات هي التي تصنع حضارة ، وأن الإكثار من استيراد المنتجات الحضارية والعبء والاستهلاك منها بدون ضوابط ، يساهم بتكريس الوهن و يقتل الفاعلية ، ويؤدي إلى الركود والاستتقاع الحضاري << (١).

فالقضية - في نظر المفكر الإسلامي مالك بن نبي - : >> ليست قضية أدوات ولا إمكانيات . إن القضية كانت في أنفسنا ، إن علينا أن ندرس أولاً الجهاز الاجتماعي الأول وهو الإنسان فإذا تحرك الإنسان تحرك المجتمع والتاريخ ، وإذا سكن سكن المجتمع والتاريخ << (٢).

لأن التنمية - في حقيقة أمرها - ليست مشكلة مادية بقلر ما هي مشكلة إنسانية بالدرجة الأولى. وكل مشروع تنموي يعطي الأولوية

---

<sup>1</sup> ( دراسة في البناء الحضاري - د. محمود محمد سفر - سلسلة كتاب الأمة ، ط 1 - ص 14 .

<sup>2</sup> ( تأملات ، مالك بن نبي - دار الفكر - دمشق - سوريا - د.ت - ص 125 .

للاستثمارات المادية ، ويهمل تنمية الإنسان ، وتهيئته وإعداده سيؤول حتما إلى الفشل - كما حدث في كثير من بلدان العالم الإسلامي - لأنه أغفل أهم عنصر في عمليات البناء والإعمار كلها وهو الإنسان : >> و إنما تقاس الحضارات بمدى قدرتها على تحقيق إنسانية الإنسان وتنمية مواهبه وإطلاق ملكاته ، ورعاية قابلياته ، وتحقيق وعيه بذاته و انسجامه مع الكون والحياة ، والارتقاء به ليحسن القيام بدوره في البناء الحضاري >> (3).

لذلك ، كان لزاما علينا قبل أن نسأل عن العمارة التي هي الهدف الأول من الاستخلاف أن نسأل عن إنسان العمارة ، وقبل أن نفكر في الإعمار والإثراء ، أن نفكر في الإنسان الذي سيعمل هموم الإعمار والبناء . لأن الإنسان هو العامل المركزي ، والقاعدة الأساسية في أي مشروع نهضوي والمحور الذي تدور عليه جميع الجهود التنموية في العالم كما أنه وسيلة الفعل الحضاري وأداته ، وهو أيضا غايته وهدفه في آن واحد ، فلا يمكن أن يحدث تغيير أو تقدم أو تطور في الحياة إلا عن طريق الإنسان

---

<sup>3</sup> ( روح الحضارة الإسلامية - محمد الفاضل بن عاشور - تقديم : عمر عبيد حسنة - ص 1 .

وبواسطته ، فهو لب العملية الاستخلافية و سبب وجودها الأول ، وعلى سواعده وعقله وفكره قامت كل الحضارات الإنسانية ، فكان هو مادتها الأولية ، وفيها الذي أحدث التغيير ، وصنع التاريخ ، وحوّل وجه الكون وحرك المجتمعات البشرية .

وقد اكتسب الإنسان هذا الدور الريادي لكونه الكائن الوحيد على هذه الأرض الذي يمتلك القدرة على التفكير والإبداع ، والاختراع والتغيير وهو الوحيد أيضا القادر بذكائه وعلمه وعمله أن يستخر الموارد الطبيعية المادية فيخضعها للتحويل ويجعلها في خدمته وخدمة بني جنسه .

و النصوص القرآنية الكثيرة صريحة إلى أبعد الحدود في إعطاء هذا الدور الحضاري للإنسان . فقد كان الإنسان هو المحور الأساس الذي يدور حوله الخطاب القرآني في سائر الأغراض والمناسبات حيث أولاه مكانة مركزية في الوجود ، واعتبره قيمة حقيقية ، و قوة للتغيير و الحركة في الحياة ، وأوكل إليه مهمة التعمير والبناء ، فكان بذلك مدار الحركة الحضارية في القرآن : ﴿إنا عرضنا الأمانة على

السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها  
الإنسان إنه كان ظلوما جهولا ﴿٤﴾.

وقد أكد القرآن مكانة الإنسان ودوره ، قبل أن تؤكد  
المذاهب الفكرية الحديثة والفلسفات التربوية ، والنظريات  
السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي عجزت جميعا عن تقديم  
رؤية متكاملة عن الإنسان : حقيقة ، وقيمة وغاية وعلاقة  
وجودية. (٥)

فقد ذُكر في القرآن الكريم خمسة وستين مرة ، وذكر ثلاث  
مرات متتالية في أول سورة نزلت من القرآن الكريم وهي سورة  
" العلق " إضافة إلى آيات كثيرة تحدثت عن الإنسان ضمنا  
عند ذكر البشر والناس وبني آدم وما إليها. (٦)

فقد خلق الله سبحانه وتعالى الإنسان ، ونفخ فيه من روحه ،  
وعلمه الأسماء كلها وأمر الملائكة بالسجود له احتراما وتقديرا ،

---

٤ ( الأحزاب - 72 .

٥ ( قيمة الإنسان - د. عبد المجيد النجار - ص 5 ، 6 .

٦ ( مفهوم الإنسان في الفكر الإسلامي - د. عمر التومي الشيباني - ص

واعترافا بمكانته ، وخلقته في أحسن تقويم ، وجعله من أقوى وأجمل المخلوقات فكان بذلك أفضلها جميعا ، وشرفه بإرسال الرسل وإنزال الكتب وحمله الأمانة الكبرى ، واستخلفه في الأرض : ﴿ ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ (٧).

وحتى يتمكن الانسان من الوفاء بمتطلبات الاستخلاف سخر الله له الكون وهياه تهينة متناسقة ، وجعل قوانينه مناسبة لقدراته حتى يتحقق التفاعل الإيجابي بينه وبين الكون فينتج عنه عمران الأرض : ﴿ وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه إن في ذلك لآيات لقوم يفكرون ﴾ (٨) ، ﴿ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار ﴾ (٩).

و أعطاه حرية الإرادة والاختيار والتصرف ، وجعله مسؤولا عن ذلك ، و أودع فيه قدرات جسمية ونفسية ، وطاقات كثيرة ، وزوده بالعقل الذي يمنحه القدرة على التعلم والتفكير ، والتدبير والإبداع

(٧) الإسراء - 70 .

(٨) الجاثية - 13 .

(٩) إبراهيم - 33 .

ويكشف له أسرار الطبيعة ومجاهيلها ، ويسر له مهمة تطويع الكون وتسخيره لمنفعته بإعمار الأرض وإنشاء الحضارة ، مما يجعل تعامله معه تعاملًا فيه التحدي والدأب والمكابدة ، ولكنه منسجم معه ، ليس فيه إعجاز أو استحالة لأنه من اختصاص طاقته وإمكاناته : ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾ (10).

وقد نوه أئمة الإسلام وعلماءؤه بهذا التكريم الإلهي الذي انفرد به الإنسان دون سائر المخلوقات في التصور القرآني فقال ابن القيم : >> اعلم أن الله سبحانه وتعالى اختص نوع الإنسان من بين خلقه بأن كرمه وفضله وشرفه . وخلق له نفسه وخلق له كل شيء وخصه من معرفته ومحبتة وقربه وإكرامه بما لم يعطه لغيره وسخر له ما في سماواته وأرضه وما بينهما ، حتى ملائكته - الذين هم أهل قربه - استخدمهم له ، وجعلهم حفظة له في منامه ويقظته ووطنه وإقامته ... وأنزل إليه وعليه كتبه ، وأرسله وأرسل إليه

(10) الحج - 46 .

وخاطبه وكلمه منه وإليه ... فلإنسان شأن ليس لسائر المخلوقات << (11).

وفي ضوء هذه المكانة المتميزة التي خص بها الله سبحانه وتعالى الإنسان فوق الأرض ، أجمع معظم علماء الإسلام المهتمون بدراسة مشكلات الحضارة على أن الإنسان هو موضوع المشروع الحضاري ومحوره المركزي ، باعتبار أن الحضارة هي حصيلة تفاعل الإنسان مع الطبيعة في وقت معلوم ، وأن الإنسان هو الكائن الوحيد القادر على صنعها ، ولولاه لما وجدت حضارة فوق الأرض فهي من أجله ولإسعاده ، لأن الإنسان هو العنصر الأول في المشروع الحضاري هدفا وموضوعا وأداة .

ومن هنا أولى الفكر الإسلامي الحديث (12) الإنسان اهتماما خاصا باعتباره وسيلة الفعل الحضاري وأداته ، وأحد أبرز

---

11 ( مدارج السالكين - ابن قيم الجوزية - ج 1 - ص 310 .

12 ( من بين الدراسات الإسلامية الحديثة التي تناولت الإنسان نذكر : "الإنسان الكامل" لمحمد إقبال ، "الإنسان في القرآن" للعقاد "القرآن وقضايا الإنسان" لعائشة عبد الرحمن و "آدم عليه السلام" للبهي الخولي و "الإنسان والقرآن" لمرتضى مطهري ، و "خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء ومقدمات في التفسير الموضوعي للقرآن" لمحمد باقر الصدر و



العناصر في المشروع الحضاري الإسلامي بل أهمها . لذلك ركز المجددون والمفكرون جهودهم في هذا المضمار ، لتحرير الإنسان المسلم من القابلية للاستعمار ، والعمل على إعداده وبنائه في الجوانب العقلية و الروحية و السلوكية و الجسمية لتمكينه من تحقيق وعيه بذاته ، وإطلاق ملكاته ، والارتقاء بقابلياته ليحسن القيام بدوره في البناء الحضاري ، وتخليص أمتة من كل أشكال التبعية والتخلف الذي ترزح فيه منذ قرون عديدة .

وفي هذا الإطار طرحت نظرية إسلامية ترى : >> أن تغيير الواقع الفاسد والوصول إلى الهدف المنشود يتطلب إعادة صياغة الإنسان المسلم من خلال تحصينه بالتربية والعقل ، وتعزيزه بالعلم

---

"الإنسان والكون في الإسلام" لأبي الوفا الغنيمي التفتازاني ، و" حقيقة الإنسان بين القرآن وتصور العلوم " لأبي اليزيد العجمي ، و"مبدأ الإنسان وقيمة الإنسان " لعبد المجيد النجار و"إنسانية الإنسان في الإسلام " لآمنة محمد نصير ، و" القرآن وبناء الإنسان " لصلاح عبد القادر البكري ، و" الإنسان في القرآن الكريم" لعبد الكريم الخطيب و"الله والإنسان في الفكر العربي الإسلامي " لأحمد خواجة ، و" مفهوم الإنسان في الفكر الإسلامي " لعمر التومي الشيباني ، و" الإنسان بين المادية والإسلام " لمحمد قطب .

وتمكينه بالإيمان ، وتثبيته بالأخلاق ، وبهذا يصبح مستعداً لتغيير الواقع الفاسد >> (13) .

وقد كان الشيخ " محمد عبده " من أبرز المصلحين المحدثين الذين اهتموا بإصلاح الفرد استناداً إلى الآية القرآنية التي تدعو إلى تغيير النفس ليتغير - تبعاً لذلك - المحيط الخارجي : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا بَقِيَتْ حَتَّىٰ يَغْيُرُوا مَا بَأْنَفْسِهِمْ ﴾ (14) . فالنفس البشرية هي العنصر الجوهرى فى كل مشكلة اجتماعية وإصلاحها يتم عن طريق الاهتمام بالتربية لتحرير الإنسان المسلم من كل ما يكبل عقله ونفسه من مظاهر التقليد ، وأنواع الانحرافات العقدية والسلوكية وتنويره بنور العلم الصحيح والاعتقاد السليم .

وكان اقتناعه كبيراً بجدوى هذه السبيل التي خالف فيها أستاذه " جمال الدين الأفغانى " الذى حدد جوهر المشكلة الإسلامية فى فساد الحكام ، ورأى أن حلها يكمن فى القضاء على الأنظمة السياسية الفاسدة ، ورسم حدود العدل بين الحاكم والمحكوم ، كما يشير إلى ذلك فى قوله : >> إنى لأعجب

(13) الفكر الإسلامى المعاصر والتحديات - منير شفيق - ص 33 .

(14) الرعد - 11 .

لجعل نبهاء المسلمين وجرائدهم كل همهم في السياسة وإهمالهم أمر التربية الذي هو كل شيء وعليه يبنى كل شيء... إن السيد جمال الدين كان صاحب اقتدار عجيب لو صرفه ووجهه للتعليم والتربية لأفاد الإسلام أكبر فائدة >><sup>(15)</sup>. من هنا ركز محمد عبده كثيرا على التربية والتعليم وترك السياسة نهائيا .

و يندرج ضمن هذا السياق أيضا ما بذله الإمام حسن البنا من جهود لصياغة الإنسان المسلم انطلاقا من إيمانه العميق بأن التربية هي الوسيلة الهامة لتغيير الأمة وبناء المجتمع وتحقيق الآمال واقتناعه بأن الإنسان وحده هو أساس التغيير ومحور الإصلاح و الإصلاح و كان منهجه في التربية قائما على فلسفة الإسلام ، محدد الأهداف ، واضح الخطوات متكامل الجوانب ، متنوع الوسائل والأساليب<sup>(16)</sup> .

---

(15) الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده - محمد عبده - جمع وتقديم : محمد عمارة - ج 1 - ص 682 .

(16) التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا . يوسف القرضاوي - ص 7

وسارت الحركة الإصلاحية في الجزائر على الدرب نفسه  
حينما التزمت بمبدأ تغيير الإنسان تمهيدا لإصلاح حالة المجتمع  
الجزائري المتردية ، متخذة من الآية القرآنية : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ مَا  
بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ <sup>(17)</sup> منهاجا لها : >> وإنها  
لشريعة السماء : غيّر نفسك تغير التاريخ !  
وعلى هدى هذه الكلمة بدأ الإصلاح الجزائري  
من النفس هادفا في جوهره إلى تغيير الإنسان  
فبعث فيه روحا وثابة أشرققت معها بواذر النهضة  
الكبرى >> <sup>(18)</sup> .

وكان أبرز قادتها وروادها الإمام عبد الحميد  
بن باديس ( 1889 – 1940 م ) يرى أن التربية التي تستند إلى  
العقيدة الصحيحة الخالية من البدع والضلالات ، والقائمة على  
أساس الفضائل الإسلامية هي الكفيلة بإيجاد الإنسان الصالح الذي  
يعمل على النهوض بالمجتمع الجزائري و تخليصه من الكبوة  
التي وقع فيها .

(17) الرعد ، 11 .

(18) شروط النهضة ، مالك بن نبي ، ص 32 .

لذلك رابط لمدة تقارب ثلاثة عقود معلما ومربيا يبني الأفراد  
ويعد الأجيال بتزكية نفوسها ، وصقل عقولها ، وتطهير عقائدها  
وتهذيب أخلاقها ، وهو القائل : >> فصلاح النفس هو صلاح  
الفرد ، وصلاح الفرد هو صلاح المجموع ، والعناية الشرعية  
متوجهة كلها إلى إصلاح النفوس . إما مباشرة و إما بواسطة فما  
من شيء مما شرعه الله تعالى لعباده من الحق والخير والعدل  
والإحسان إلا وهو راجع عليها بالصلاح ... فتكميل النفس  
الإنسانية هو أعظم المقصود من إنزال الكتب ، وإرسال الرسل  
وشرع الشرائع >> (19) .

وقد حذا محمد البشير الإبراهيمي حذو ابن باديس ومن تقدمه  
من المصلحين ، إذ يستطيع المتصفح لكتاباتهِ أن يتبين الاهتمام  
الواضح بالإنسان كمحور للتغيير عنده . ذلك أنه كان يؤمن إيمانا  
قاطعاً بأن تغيير الواقع الأليم لا يمكن أن يتم إلا عبر بناء الإنسان  
باعتباره اللبنة الأولى التي يقوم عليها المجتمع وقد أكد هذه الحقيقة  
حينما اعتبر الإنسان محورا مركزيا ، يتوقف عليه تقدم المجتمع  
وتأخره ، وعدَّ ذلك من النتائج العملية التي قررها علم الاجتماع

---

(19) تفسير ابن باديس - ص 107 .

البشري : >> ومما علمناه من شؤون الاجتماع البشري ... أن الكمال في المجموع متوقف على الكمال في الأفراد ، وأن النقص في المجموع مترتب على النقص في الأفراد فمتى أخذ الأفراد بأسباب الكمال وسلكوا له وسائله كمل المجموع >><sup>(20)</sup> .

وفي ذلك إشارة واضحة إلى القيمة الحقيقية التي يكتسبها الإنسان في عملية الاستخلاف و البناء الحضاري ، فهو المحرك الأساسي لمسيرة التطور والتقدم و نقطة البدء المهمة التي يجب أن تنطلق منها . فمتى كان الفرد مستعدا للعطاء والإنتاج قادرا على صنع التاريخ ، تحرك معه المجتمع وسار نحو النهضة . أما إذا خمد الفرد وماتت فيه الفاعلية ، وفترت الإرادة ، وقعد عن طلب الكمالات أصيب المجتمع بدوره بالركود : >> ومتى قعد الأفراد عن تعاطي أسباب الكمال فشت النقائص في المجموع >><sup>(21)</sup> .

لذلك كان التركيز على أهمية الإنسان ودوره في استئناف حياة إسلامية جديدة ، بعد أن تبين أن صنع التاريخ وإعمارها متوقف على حركته ، مما يؤكد أن تطور المجتمع وتقدمه لا يتم إلا

---

(20) آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي - ج 1 - ص 139 .

(21) المرجع نفسه - ص 139 .

إذا انصب الاهتمام على إعادة الاعتبار له وجعله المحور الحقيقي  
للعلمية الاستخلافية ، وإناطة قيادة حركة البناء به على أساس أنه  
المخلوق المكرّم المستخلف الذي يمتلك قوة التغيير والإنتاج  
المستمر في الحياة مما يمكنه من تحقيق قفزات نوعية لإحداث التغيير  
المنشود في العالم الإسلامي اليوم .





## الفصل الثاني

الاستخلاف : أهميته وطبيعته



## أولا : أهمية الاستخلاف

إن الخلافة في الأرض هي المهمة التي انتدب الله لها الإنسان ، و جعل تحقيقها تحقيقا للغاية من وجوده . وهي تتضمن مسؤولية عظيمة ، تتمثل في تمكين الإنسان من أمانة الأرض و ناصية الكون ، و تسخير له ، ليكون سيذا عليه مالكا لمفاتيحه متصرفا في شؤونه ، مستغلا خيراته ، منفذا فيه إرادته بالتعمير و التغيير ، و الترقية ، و التطوير .

و قد أكدت الآيات الكريمة عظمة هذه المسؤولية ، و ثقل الأمانة التي أنيطت بالإنسان ، و عجز سائر الكائنات و المخلوقات عن حملها ، و الوفاء بحقها ، فقال الله عز و جل منبها إلى جسامه هذا التكليف الرباني : (إنا عرضنا الأمانة على السماوات و الأرض و الجبال فأبين أن يحملنها و أشفقن منها و حملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا )<sup>(1)</sup>

و تخصيص الإنسان بالاستخلاف دون سائر المخلوقات الأخرى من ملائكة و جن و غيرهم ، يوحي بأنها درجة و

---

(1) الأحزاب ، 76

جودية عليا بين المخلوقات و مركز كوني سام و مرموق (2) خص به آدم وذريته من دون الخلق جميعا للإشراف على رعاية شؤون عالم الشهادة ، و تدبير أمر الإنسان ، و السير بالبشرية في الطريق المرسوم للخلافة الربانية (3) .

يدل على ذلك استشراف الملائكة لهذه الوظيفة ومجادلتهم لله تعالى في اختيار الإنسان لها ، ثم إنابتهم و سجودهم لآدم ، و حقد إبليس و حسده له ، و رفضه السجود له بسبب هذا التفضيل و التكريم ، مما أدى إلى طرده من رحمة الله و استحقاقه اللعنة إلى يوم الدين .

و سجود الملائكة لآدم لم يكن سجود عبادة ، بل كان بمثابة إقرار و اعتراف لآدم بأحقيته في خلافة الأرض ، كما يتضمن أيضا تفضيل الإنسان على سائر المخلوقات ، تقديرا لما أودع الله فيه من سر المعرفة التي ترفعه فوق مرتبة الملائكة ، ويعد هذا السجود من أروع صور التكريم و أعلاها . من هنا جمعت الخلافة

---

(2) استخلاف الإنسان في الأرض. فاروق أحمد دسوقي ، ص 10

(3) خلافة الإنسان و شهادة الأنبياء . محمد باقر الصدر ، ص 10

بين كونها شاقة و ثقيلة ، و كونها متميزة و خاصة تتضمن كل معاني الرفعة و التشريف ، و التكريم ، و التفضيل .

و قد شاءت إرادة الله أن يرتبط مصير الإنسان و مآله بمدى قيامه بمتطلبات هذا الاستخلاف ، و وفائه بمسؤولياته الجسمية في عالم الشهادة ، فإذا غفل عنه ، أو فرط فيه ، أو نكص عن أداء ما استؤمن عليه ، يكون بذلك قد تخلى عن مهمته الحقيقية ، و ألغى جانبا كبيرا من طبيعته و فقد كثيرا من خصائصه ، لأن القيام بأعباء الاستخلاف في جانبيه الروحي و المادي ، طبع مركزوز في الإنسان ، مفطور عليه ، مدفوع إليه بالجلبة ، و أدائه هذه الوظيفة الاستخلافية هو الذي يعطي لحياته على و جه الأرض هدفا و معنى ، و يمكنه من صنع تاريخه ، و تحقيق رسالته في الوجود كما أرادها الله .

و قد حفلت الآيات القرآنية بالحديث عن هذه الوظيفة الاستخلافية و ما تقتضيه من حق التصرف ، و أهلية المسؤولية و ماتلقيه على الإنسان من تبعات جسام ، أُغْفِيَتْ منها كل الكائنات الأخرى . كما أسهبت في تذكير الناس بالجانب التشريفي و التكريمي لهذه المهمة ، و قد جاء التعبير عنها

بمصطلحين اثنين هما ، الأمانة و الخلافة ، و المصطلح الثاني ( الخلافة ) و ( الاستخلاف ) أغلب على النصوص القرآنية من مصطلح الأمانة ، لذلك سنحاول في هذا البحث التركيز على مصطلح الاستخلاف محللين أبعاده و مدلولاته في ضوء الخطاب القرآني .

ورد مصطلح الاستخلاف في القرآن الكريم بصيغ مختلفة منها : استخلف ، خليفة ، خلائف ، وغيرها . و من النصوص القرآنية التي تحدثت عن الاستخلاف قوله تعالى ( هو الذي جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلوكم في ما آتاكم ، إن ربك سريع العقاب و إنه لغفور رحيم )<sup>(4)</sup> ، ( وعد الله الذين آمنوا منكم و عملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، و ليتمكن لهم دينهم الذي ارتضى لهم و ليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا يعبدونني لا يشركون بي شيئا ، و من كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون )<sup>(5)</sup> ، ( هو الذي جعلكم خلائف في الأرض ، فمن كفر فعليه كفره و لا يريد

---

(4) الأنعام ، 165 .

(5) النور ، 55 .

الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا) (6) (و إذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون) (7) .

و لا يفوت القارئ هذه الآيات الكريمة أن يلاحظ أنها تدل كلها على معنى واحد ، هو بيان كون الخلافة بأبعادها ومدلولاتها الحضرية هي الوظيفة الوجودية للإنسان في الأرض التي من أجلها خلق ، و بها فُضِّلَ على كثير ممن خلق الله تفضيلا ( و لقد كرمتنا بني آدم و حملناهم في البر و البحر و رزقناهم من الطيبات و فضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ) (8)

فما هي هذه الوظيفة الاستخلافية التي استحقت كل هذا التقدير و التنويه ؟ .

---

(6) فاطر ، 39 .

(7) البقرة ، 30 .

(8) الاسراء ، 70 .

ثانيا : الاستخلاف ، مفهومه و حقيقته

كلمة الخلافة في اللغة مشتقة من : خَلَفَهُ  
يَخْلُفُهُ إذا قام بالأمر عنه فهي نيابة أو وكالة عن الغير  
( (إما لغيبة المنوب عنه ، وإما لموته ، وإما لعجزه و  
إما لتشريف المستخلف<sup>(9)</sup>)) و عليه ، فإن المعنى الذي  
تتضمنه كلمة الخلافة في الآيات السالفة  
الذكر هي أن الله سبحانه و تعالى قد أناب عنه الإنسان في  
هذا الوجود ليتصرف في مملكته الكونية طبقا لحق الاستخلاف  
الذي و هبه إياه<sup>(10)</sup> .

وهذا هو المعنى الذي أشار إليه العلماء ، ومنهم " أبو  
السعود " الذي ذكر في تفسيره أن معنى الخلافة هو >> خلافة  
من جهة الله سبحانه في إجراء أحكامه <<<sup>(11)</sup> ، وابن عاشور الذي  
قال إن : (( المراد من الخليفة المعنى المجازي و هو الذي يتولى عملا

(9) معجم مفردات ألفاظ القرآن . الراغب الأصفهاني ، ص 157 .

(10) نظام الحياة في الاسلام . أبو الأعلى المودودي ، ص 23 ، 24 .

(11) أبو السعود ، محمد العمادي . إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن



يريده المستخلف مثل الوكيل و الوصي ، أي جاعل في الأمر مدبرا يعمل ما نريده في الأرض . . . فالخليفة آدم ، والمراد بخلفيته قيامه بتنفيذ مراد الله << (12) .

وكلمة الخلافة تعبر عن وجود علاقة بين أطراف مختلفة ، و عناصر أساسية تتكامل فيما بينها لتحقيق مفهوم الخلافة وهي : المستخلفُ و هو الله والمستخلف و هو الإنسان والمستخلف فيه و هي الأرض ، و المستخلف عنه وهو المنهج الإلهي أي مضمون الاستخلاف .

ومن ثم ، فالخلافة هي تكليف إلهي للإنسان ليباشر مهمة الإعمار والبناء في الأرض و وفق إرادة الله لتحقيق بذلك العبودية الكاملة لله في هذا الكون.

لكن استخلاف الإنسان في الأرض ، ومنحه مطلق السيادة على الكون لا يعني أنه مالك له وإن كان سيّدا عليه . فهو ليس حاكما بالأصالة ، و إنما حاكم بالتفويض ، أي أن الله أطلق يده بالتصرف في الأرض للقيام بأعباء أمانة الاستخلاف و هو

---

(12) التحرير والتنوير . محمد الطاهر ابن عاشور ، ج 1 ، ص 376 .

ما توحى به كلمة الخليفة التي تعني في جملة ما تعني النيابة أو الوكالة .

وعليه ، فهو غير مخول أن يسير فيه بهواه منفصلا عن توجيه الله سبحانه وتعالى لأن هذا يتنافى مع طبيعة الاستخلاف . بل يجب أن تكون حركته الحضارية موافقة لأوامر الله ونواهيه ، وبذلك تصبح الخلافة : >> استئمان على الكون والطبيعة والبشر ولهذا وصفها القرآن الكريم في إحدى آياته بالأمانة فالإنسان الخليفة مؤتمن ، وكذلك مجتمع الخلافة ، وجوهر الأمانة هو رعاية تلك القيم الخيرة التي ينطوي عليها المشروع الحضاري الإسلامي >> (13) .

فجوهر الاستخلاف أن يظل الإنسان الخليفة مرتبطا بمن استخلفه ارتباطا مستمرا ، وأن يجتهد اجتهادا دائما للاقتراب منه وذلك بالعمل الدائب ، والكدح المستديم لترقية ذاته وتنميتها (14) حتى يتمكن من تحقيق مستويات راقية من الاستخلاف .

---

(13) الإسلام يقود الحياة . محمد باقر الصدر ، ص 154 .

(14) مجلة الموافقات ، الإنسان في القرآن . عبدالمجيد النجار، ع3 جوان ، 1994 ص 55 .

كما أن الخلافة التي أناطها الله بآدم عليه السلام ليست وقفا على شخصه فقط ، وإنما هي تمتد لتشمل النوع الإنساني الذي سيتفرع عن آدم منذ بدء الخليقة إلى نهاية الدنيا ، و الذي سيكون مكلفا أيضا بحمل مسؤولية الاستخلاف كما بين ذلك الزمخشري في قوله : << أريد بالخليفة آدم ، واستغنى بذكره عن ذكر بنييه كما يستغنى بذكر أبي القبيلة في قولك مضر وهاشم >> (15) .

مما يدل على أن الله سبحانه وتعالى قد أناب الجماعة البشرية في قيادة الكون وإعمارها اجتماعيا وطبيعيا (16) .  
وعليه ، فالإنسان وحده هو المكلف بالقيام بمسؤولية الخلافة في الأرض وتحمل أعبائها ، وهو الوحيد الذي سيحاسب على ذلك ، على الرغم من أنه لا يسكن الأرض وحده ، ففيها الجن كذلك ، وهم خلق مبتلى ومكلف بالعبادة مثله (17) لكنه لا يمتلك الطاقات والمواهب التي يتميز بها الإنسان لإعمار الأرض

---

(15) الكشف عن حقائق التنزيل . الزمخشري ، ج 1 ، ص 10 .

(16) خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء . محمد باقر الصدر ، ص 10 .

(17) استخلاف الإنسان في الأرض . فاروق أحمد دسوقي ، ص 5 .

فهما - وإن اشتركا في عبادة الله وطاعته - إلا أن الخلافة تبقى من اختصاص الإنسان وحده .

ثم إن الخلافة في الأرض غير مرتبطة بمدة معينة ، ولا خاصة بعصر من العصور أو زمن من الأزمان ، بل هي صيرورة دائمة تنساب مع الإنسان على مر التاريخ منذ ميلاده إلى أن يأذن الله بنهاية العالم .

فهي تبدأ لتنتهي مع عمر جيل من أجيال الإنسانية وتنتهي لتبدأ مع جيل جديد وهكذا تظل في ديمومة صاعدة . لأن الله قدر للأرض جميعا أن تبقى معمورة وأن يظل الإنسان يكدح فيها حتى توفي أجلها : >> فمن سنن الله ونواميسه الكونية في هذه الحياة الدنيا أن تظل هذه الأرض معمورة بأهلها ماضية في أخذ زيتها وزخرفها ، خاضعة لسنة التطور حتى يأتي وعد الله وتحين الساعة المحتومة المحددة لقيام الساعة . . . فلا بد من أمم وجماعات تقود حركتها المعاشية والعمرانية والاجتماعية . . . تتداول فيما بينها قيادة هذه

الرحلة الإنسانية حتى تبلغ مداها الأخير في علم  
الله عز وجل >> (18) .

وخلاصة القول أن عملية الاستخلاف في القرآن الكريم  
حركة إنسانية إيجابية ، فاعلة ، دائبة ، مستمرة ، ومتناغمة مع  
سنن الأنفس والآفاق يسعى الإنسان من خلالها إلى ترقية حياته  
الروحية والخلقية ، وتسخير كل مظاهر الكون الفسيح والانتفاع  
بها ، وتوجيهها لخدمته وخدمة بني جنسه رغبة في إقامة حضارة  
إنسانية في ظل منهج العبودية لله الذي تنتفي معه كل مظاهر الخلل  
والفوضى والاضطراب .

---

(18) منهج الحضارة الإنسانية في القرآن . محمد سعيد رمضان البوطي



## الفصل الثالث

### العبادة أساس الاستخلاف





إن الآيات القرآنية الكريمة التي تتحدث عن خلق الله للكون و الإنسان صريحة في نفي العبثية عن هذا الخلق لأن القول بخلق الكون و الإنسان سدى يتنافى مع صفاته العليا سبحانه و تعالى و يتعارض مع كماله المطلق ، وإرادته المنزهة عن الفوضى ، مما يؤكد - في المقابل - وجود حكمة عليا منه ، تعلل نظام الكون و تناسقه ، و تسوية الإنسان في أحسن تقويم .

و النصوص القرآنية الدالة على ذلك كثيرة منها قوله تعالى : ﴿ أيجسب الإنسان أن يترك سدى ﴾<sup>(1)</sup> و قوله عز وجل ﴿ وما خلقنا السماء و الأرض و ما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار ﴾<sup>(2)</sup> ، و قوله عز من قائل ﴿ و ما خلقنا السماوات و الأرض و ما بينهما لا عين ما خلقناهما إلا بالحق و لكن أكثرهم لا يعلمون ﴾<sup>(3)</sup> ، و قوله أيضا ﴿ ما خلقنا السماوات و الأرض و ما بينهما إلا بالحق و أجل

---

(1) القيامة ، 33 .

(2) ص ، 26

(3) الدخان ، 36 ، 37

مسمى و الذين كفروا عما أنذروا معرضون ﴿٤﴾ ، وقوله ﴿  
أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا و أنكم إلينا لا ترجعون فتعالى الله  
الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم﴾ (٥) . ففي هذه الآية  
الأخيرة استفهام استنكاري ينفي أن يكون الوجود الإنساني على  
الأرض عبثا بلا غاية ، و يؤكد أن ما فضل الله به الإنسان من  
قدرات و مؤهلات و ما ميزه به من تكريم له غاية جليلة  
وهدف عظيم لا يجوز أن يغفله إنسان .

و قد وضح القرآن الكريم الحكمة الجامعة من الخلق في  
قوله جل و علا ﴿ و ما خلقت الجن و الإنس إلا ليعبدون ﴾ (٦)  
حيث أكدت الآية الكريمة الغاية الجليلة التي و جد لأجلها الجن  
و الإنس هي تحقيق العبودية لله سبحانه و تعالى بالخضوع له  
في سائر الأحوال ، و الإنابة إليه ، و الالتزام بأوامره و نواهيه و  
الاعتراف بفضله ، و الاحتكام إليه في جميع ما يعرض له في هذه  
الحياة من مواقف ، و ذلك بما تضمنته من النفي و الاستثناء اللذين

---

(٤) الأحقاف ، 2

(٥) المؤمنون ، 113 ، 116

(٦) الذاريات ، 56

يعدان من أقوى صور الحصر و القصر ، و بذلك تكون الآية قد نفت كل غاية للوجود الإنساني غير العبادة و حصرت - في الوقت ذاته - غاية هذا الوجود كله في عبادة الله<sup>(7)</sup> .

فتخصيص العبادة بالذكر دليل على أنها العلة الكبرى في خلق الإنسان قال الزمخشري في تفسير هذه الآية >> «أي و ما خلقت الجن و الإنس إلا لأجل العبادة»<sup>(8)</sup> ، و قال ابن عاشور >> «اللام في " ليعبدون " لام العلة أي ما خلقتهم لعله إلا علة عبادتهم إياي ، و التقدير : لإرادتي أن يعبدون»<sup>(9)</sup> ، ثم يضيف قائلاً >> «فلا جرم أن الله أراد من الشرائع كمال الإنسان و ضبط نظامه الاجتماعي في مختلف عصوره ، تلك حكمة إنشائه... فعبادة الإنسان ربه لا تخرج عن كونها محققة للمقصد من خلقه و علة لحصوله عادة»<sup>(10)</sup> . و قد ركزت كثير من الآيات

---

(7) مفاهيم ينبغي أن تصحح . محمد قطب ، ص 174

(8) الكشاف عن حقائق التنزيل . الزمخشري ، ج 4 ، ص 21 .

(9) التحرير و التنوير ، محمد الطاهر ابن عاشور ، ج 4 ، ص 21

(10) المرجع نفسه ، ج 4 ، ص 21

القرآنية تركيزا شديدا على العبادة ، وأسهمت في إبراز دورها الأساسي في عملية الاستخلاف ، و أكدت أنها قوام الاستخلاف و عماده و المحور المركزي الذي تدور عليه العملية الاستخلافية كلها .

و العبادة عهد قديم أخذه الله على بني الإنسان في الأصلاب قبل مولدهم . قال تعالى ﴿ و إذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم و أشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا ﴾<sup>(11)</sup> وقد استند الإمام أبو حنيفة النعمان على هذه الآية ليؤكد أن الإنسان يولد على الفطرة أي معترفا بوجود الله ، ثم يتفاعل مع بيئته ، فمنهم من يظل على إيمانه ومنهم من ينحرف ويضل : >> خلق الله تعالى الخلق سليما من الكفر و الإيمان ثم خاطبهم وأمرهم ونهاهم فكفر من كفر بفعله وإنكاره و جحوده الحق بخذلان الله تعالى إياه و آمن من آمن بفعله وإقراره وتصديقه بتوفيق الله تعالى إياه ونصرته له . أخرج ذرية آدم من صلبه على صور الذر فجعلهم عقلاء فخاطبهم وأمرهم بالإيمان ونهاهم عن الكفر فأقروا له بالربوبية فكان ذلك منهم إيمانا فهم

---

(11) الأعراف ، 172

يولدون على تلك الفطرة ومن كفر بعد ذلك فقد بدّل وغير ،  
ومن آمن وصدق فقد ثبت عليه ودام >><sup>(12)</sup> . فالإحساس  
بالعبودية - بمقتضى هذه الآية - مركز في فطرة الإنسان ، وهو  
يتجلى في شعور عميق بوجود ذات عليا كاملة أقوى منه  
، تنظر إليه بعين الرعاية و يلتجئ إليها في ساعات الضيق و  
القلق و الاضطراب .

وهذا ما يفسر ميل الإنسان - على مر العصور - إلى  
البحث عن معبود يفضي إليه بذات نفسه ، و يقدم له آيات  
الخضوع لينال رضاه و يستدر عطفه ، و يطلب نصره و عون  
و يكشف له أسرار الحياة الغامضة ، سواء كان توجهه إلى الله أو  
سواه >> فالعبودية حقيقة كونية ... و العبد يراد به المعبّد  
الذي عبّده الله فذلّله و دبره و صرفه ، و العبودية هي  
الحقيقة الكونية التي يشترك فيها ، و في شهودها  
و في معرفتها المؤمن و الكافر ، و البر و الفاجر >><sup>(13)</sup> .

---

(12) الفقه الأكبر ، أبو حنيفة النعمان ، شرح الملاء علي القاري الحنفي

ص 73 ، 74

(13) العبودية . ابن تيمية ، ص 47 ، 49

و قد أثبتت الدراسات الأثنروبولوجية الحديثة أن جميع شعوب الدنيا وفي كل الأصقاع ، قد مارست العبادة ابتداء من القبائل المغرقة في البدائية إلى الأمم التي بلغت شأوا بعيدا في الحضارة و التقدم.

و اختلفت مظاهر العبودية التي كان يظهرها الإنسان للمعبود الذي يدين له ، و تفاوتت بين عبادة الكواكب و الأجرام السماوية الضخمة كالشمس و القمر ، إلى عبادة الحيوانات أو ما يسمى بالطوطمية التي تعتقد بحلول الروح المقدسة في هذه الحيوانات ، إلى عبادة الأشجار و الأصنام ، إلى عبادة الجن و الملائكة ، إلى عبادة البشر ، سواء كانوا أنبياء أو أولياء صالحين أو ملوكا جبارين وما إليها .

وكل هذه المظاهر التي اتخذتها أشكال التعبد عند الإنسان على مر العصور ، و في مختلف البيئات ، ولدى كل الشعوب تثبت بما لا يدع مجالا للشك أن الإنسان بفطرته مدفوع إلى التماس كائن غيبي غير مادي يرجو منه النفع ، و يطلب منه دفع الضر ، و يلتجئ إليه في الحالات العصيبة التي تلم به و يسد به شعور الفراغ و الضياع الذي ينتابه في هذا الكون الشاسع و هذا

ما عبر عنه أحد المؤرخين بقوله : >> لقد وُجِدَتْ في التاريخ مدن بلا قصور و لا مصانع و لا حصون ، و لكن لم توجد أبدا مدن بلا معابد <<<sup>(14)</sup> .

وقد أكد هذه الحقيقة الإنسانية الفيلسوف الفرنسي برغسون بقوله : >> لقد وُجِدَتْ و توجد جماعات إنسانية من غير علوم و فنون و فلسفات و لكن لم توجد قط جماعات بدون ديانة <<<sup>(15)</sup> .

و مفهوم العبودية الذي تحدث عنه القرآن الكريم مفهوم واسع ، يلقي بظلاله على جميع شؤون الإنسان كبيرها و صغيرها ، ابتداء بالفكرة و الخاطرة و السلوك و انتهاء بالسعي في مناكب الأرض للكدح و طلب الرزق . وهو غير محصور في أداء الشعائر ، إذ من غير المعقول أن يكلف الله عباده بأن تكون حياتهم كلها عبادة ، ثم يضيّق نطاقها في هذا الجانب فقط ، فالبشر لا يقضون حياتهم كلها في

---

<sup>(14)</sup> الايمان و الحياة . القرضاوي ، ص 99

<sup>(15)</sup> الدين ، د. عبدالله دراز ، ص 87

إقامة الشعائر ، و إنما هناك أنواع أخرى من النشاطات و الأعمال التي كلفوا بها وهي تستغرق معظم أوقات حياتهم<sup>(16)</sup> .

و العبادة - بهذا المعنى - تشمل الفرائض التعبدية و الأركان الشعائرية ، و حسن المعاملة ، و الوفاء بحقوق العباد و الأخلاق و الفضائل الإنسانية ، و آداب الأكل و الشرب و وسائل كسب الرزق ، و بناء الدولة و سياسة الحكم و شؤون المعاملات ، و كل ما يتصل من بعيد أو قريب بحياة الإنسان الروحية و الاجتماعية و المادية ﴿ قل إن صلاتي و نسكي و محياي و مماتي لله رب العالمين لا شريك له ، و بذلك أمرت و أنا أول المسلمين ﴾<sup>(17)</sup> .

و في هذا الإطار ، تصبح حياة الإنسان كلها مرتبطة بهذا المفهوم : >> أن هناك عبدا و ربا : عبداً يُعْبَدُ و ربا يُعْبَدُ . فتوجه حياته كلها بكل حركة ضمير و كل حركة جوارح إلى الله سبحانه و تعالى لتؤدي فروض الطاعة

<sup>(16)</sup> في ظلال القرآن . سيد قطب ، ج 5 ص 3387

<sup>(17)</sup> الأنعام ، 162 ، 163



و الخضوع >> (18) . و بذلك تكتسي العبودية مفهومها الحقيقي و ينتفي الفرق بين الصلاة و العمل في الحقل و بين الحج و عمارة الأرض ، و بين الزكاة و السعي لاكتشاف سنن الله و تسخير الموارد المادية و بين الصوم و الكدح الدائم و راء رزق أوفر و حياة أفضل ، و تصبح كلها أعمالا تعبدية إذا التزم فيها الإنسان الإخلاص و الصواب . و في نطاق هذه العبودية الشاملة استخلف الله تعالى الإنسان في الأرض ، و كلفه بمهمة تعميرها و بذلك كانت العبادة هي لب الخلافة و روحها .

و على هذا الأساس ، يمكننا تقسيم العبادة - باعتبارها الغاية العليا للخلق - إلى قسمين من باب المجاز : عبادة صغرى تتمثل في القيام بالفرائض الدينية ، و الشعائر التعبدية كالصلاة ، و الصيام ، و الزكاة ، و الحج و الاستغفار ، و الذكر وما إليها مما يهذب الغرائز ، و يبعد النفس عن متهاتات القلق و الضياع و الاضطراب ، و يشعرها بالطمأنينة و السكينة و يربطها بصلات متينة و دائمة بالله عز و جل .

---

(18) في ظلال القرآن . سيد قطب ، ج 5 ، ص 3387

و عبادة كبرى ، تتمثل في الاستخلاف في الأرض بتعميرها ، واستغلال خيراتها ، و تسخير ما فيها لصالح بني آدم و العلاقة بين العبادتين وثيقة ، بل هما وجهان لعملة واحدة باعتبار أن النظام العبادي - في شموليته - هو الإطار الأخلاقي للاستخلاف في الأرض و الاستعمار فيها .

## الفصل الرابع

الاستخلاف بين الإيمان والعمران



و بناء على ما سبق ، فإن المشروع الاستخلافي يقوم على  
بعدين أساسيين هما : الإيمان و العمران . فالإيمان هو التزقي  
الروحي و الخلقى الذي يثمره تهذيب النفس الإنسانية و تزكيتها  
و تأهيلها لعمل الخير ، و تقوى الله في كل ما تأخذ و تدع  
و مراعاة حقوق غيرها في المجتمع و المحافظة عليها . و بالجملة  
فهو يشمل كل ما ينضوي تحت لواء التقوى و الفضيلة  
و العمل الصالح من معان .

أما العمران ، فهو التزقي المادي و المدني الذي  
يتمثل في الجهود التي يقوم بها الإنسان لاستثمار مرافق  
الكون و الانتفاع بها و تسخيرها في خدمة مطالب  
حياته ، و حاجاته الأساسية . و سنحاول فيما يلي بيان  
و شرح هذين البعدين :

## 1 - الإيمان : يشكل الإيمان البعد الأول ، و الركيزة

الأساسية للمشروع الاستخلافي ، و هو يتحقق باجتهد  
الإنسان في الالتزام بأداء الفرائض ، و الارتقاء إلى أداء  
النوافل ، و المساهمة الفعالة في تغطية فروض الكفاية التي  
تعين على النهوض بالأمة و دفع مسيرتها نحو الرقي لأن

الشعائر و العبادات من أعظم الوسائل في تربية النفس الإنسانية و تزكيتها ، فهي بمثابة المدرسة التي تتناول الإنسان بالتهذيب و الإعداد و التربية ، و : >> الحكمة الجامعة في العبادات كلها هي تزكية النفس و تطهيرها من النقائص الروحية و تصفيتها من الكدرات ، و إعدادها للكمال الإنساني و تقربها للملا الأعلى ، و تلطيف كثافتها الحيوانية >> (1).

والعبادات هي التي تغرس وتنمي المعاني الروحية السامية في نفس الإنسان ، كمعاني الإيمان بالله ، والتقوى لله والإخلاص له ، والثقة به والتوكل عليه ، والرغبة منه ، والرغبة إليه ، واستشعار رقابته ، والإحساس بمعيته ، وتغذية الفرد بالشعور بالمسؤولية أمام الله ، وترسيخ قيم الاعتزاز بالدين والمحافظة على شعائره واحترامها و توقيرها .

فهذه الجهود التي يلزم بها الإنسان نفسه تدفعه إلى تنمية أشواقه الإيمانية و تدرج به في سلم الكمال حتى يصل إلى مستوى رفيع من الشفافية الروحية التي تجعله يعبد ربه ، و هو يستشعر حضوره الدائم في عقله و ضميره و وجدانه وهي درجة

---

(1) عيون البصائر ، الابراهيمى ص 574

الإحسان التي أشار إليها الحديث الشريف في قوله عليه الصلاة والسلام ( الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ) (2) .

و هذا الإحساس السامي هو الذي يرفع توتره الإيماني بصورة مستمرة تدفعه إلى التفاني في تحقيق عبوديته لله ، و تمده بالطاقة الضرورية للاستعلاء على كل ما من شأنه أن يضعف علاقته الحميمة بربه : >> فيحسن كل شيء صغيرا كان أم كبيرا ، و يبدع في تنفيذ كل مهمة جزئية كانت أو كبيرة و يستنفر أقصى طاقات أمانته و مسؤوليته ، و يقظة ضميره من أجل أن تجيء جل ممارساته نقية ، أصيلة متسامية ... >> (3) . فالترقي الروحي هو الذي يُكوّن القلوب الحية و الضمائر اليقظة المستعدة للقيام بأعباء الاستخلاف .

---

(2) مختصر صحيح مسلم . الألباني . كتاب الايمان ، باب أول الإيمان . ص 7

(3) آفاق قرآنية . د . عماد الدين خليل ، ص 17

و ينعكس هذا الاتصال الحي بالله عز وجل -  
بشكل طبيعي - على سلوك الإنسان و عمله في المجتمع ،  
و يكون من ثمراته الطيبة سعيه لتنمية روح التعاون مع  
غيره ، و الاندماج في الجماعة و التعود على الإيثار و  
التسامح و نكران الذات ، و حب العمل و التواضع و الصدق ،  
و الأمانة ، و الوفاء و التضحية ، و الإشفاق على الخلق ، و يستتبع  
ذلك الإعراض عن كل ما يمكن أن يصطدم مع هذه  
الخصال الحميدة و يندس علاقته القوية بربه و يعوق  
مسيرة ترقيه الروحي نحو الأفضل كالكذب و النفاق ،  
و الغرور ، و الحسد ، و الطمع و الظلم ، و البخل و الرياء  
و ما إليها .

و بذلك يحدث الانسجام الرائع بين الإيمان و العمل  
أو العقيدة و السلوك ، و تنتفي من شخصية المسلم كل مظاهر  
التناقض و الازدواجية و هو الهدف البعيد الذي كان يرمي  
إليه القرآن الكريم من خلال الربط الدائم  
و المتكرر بين الإيمان و العمل الصالح في كثير من الآيات  
كقوله عز وجل ﴿ و العصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذين



آمنوا و عملوا الصالحات و تواصوا بالحق و تواصوا بالصبر ﴿٤﴾  
 و قوله تعالى ﴿٥﴾ إن الذين آمنوا و عملوا الصالحات يهديهم ربهم  
 بإيمانهم ﴿٥﴾ وقوله أيضا : >> إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا  
 تنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم  
 توعدون << ﴿٦﴾ . و من خلال التشنيع كذلك على كل من يفصل  
 بين الاعتقاد و السلوك كما في قوله تعالى ﴿٧﴾ يا أيها الذين آمنوا لم  
 تقولون ما لا تفعلون كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا  
 تفعلون ﴿٧﴾ .

وكلما قطع الإنسان أشواطا في ترقيه الروحي ، كلما أثمر  
 ذلك تنمية لإنسانيته ، و ارتقاء بسلوكه الاجتماعي ، و هو ما  
 حدا بالعلماء المهتمين بدراسة السلوك الإنساني ، و البحث في  
 بواعثه و أهدافه إلى التنبيه إلى الاختلاف العميق و الشاسع  
 بين الأخلاق التي تفرضها الأحكام المدنية و الأخلاق التي تشرها

(٤) العصر ، 1 ، 2 ، 3

(٥) يونس ، 9

(٦) فصلت ، 30

(٧) الصف ، 2 ، 3

التوجيهات الدينية ، و تتولد من اجتهاد الإنسان في تحقيق مستوى عال من التزقي الروحي للاقتراب من الله عز وجل ، و هذا ما أشار إليه " ألكسيس كاريل " في قوله >> فالفكرة المجردة لا تصبح عاملا فعالا إلا إذا تضمنت عنصرا دينيا ، و هذا هو السبب في أن الأخلاق الدينية أقوى من الأخلاق المدنية إلى حد تستحيل معه المقارنة ، و لذلك لا يتحمس الإنسان في الخضوع لقواعد السلوك القائم على المنطق ، إلا إذا نظر إلى قوانين الحياة على أنها أوامر منزلة من الذات الإلهية << .

و لعل أبرز ما تثمره حركة التزقي الروحي و الخلقى التي يمارسها الإنسان وفق قيم الوحي الارتقاء بالحياة الاجتماعية إلى أعلى مستويات التوافق و الانسجام ، و القوة ، و التماسك والاندماج ، و العطاء المثمر .

و بسبب الأهمية القصوى التي تكتسيها عملية التزقي الروحي و الخلقى في تنفيذ بنود مشروع الاستخلاف على الوجه الذي يرتضيه الله سبحانه و تعالى ، أولاه الإسلام عناية خاصة ، و عده هدفا أساسيا و أصيلا من أهداف العملية الاستخلافية ، و بعدا قويا من أبعادها . و يتجلى ذلك بوضوح في

الكم الكبير من التوجيهات القرآنية و النبوية التي تدعو المسلم و تلح عليه لتقوية صلته با الله عن طريق العبادة ، والاجتهاد في التزقي في مدارج الكمال الروحي و الخلقى حتى يصل إلى درجة الإحسان >> إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق >><sup>(8)</sup>

## 2 - العمران : و نقصد به الجهود و النشاطات

العقلية و المادية التي بذها الإنسان في تفاعله مع مظاهر الطبيعة المختلفة في محاولة دائبة لتسخيرها ، و اكتشاف السنن و القوانين التي تحكمها للاستفادة منها ، و الانتفاع بها و تمتد هذه الجهود لتشمل الكون كله : الأرض و ما تنبتة من خيرات ، و ما يعيش فوقها من أنواع و دواب ، و ما يكمن في باطنها من ثروات و كنوز و البحار و المحيطات و ما تضمه من مخلوقات ، و موارد غنية .

فكل ما يحويه هذا الكون ملك للإنسان بأمر الله ، مسخر له ، خاضع لعقله و يديه . و يدخل فيها كذلك كل

---

(8) الموطأ . مالك بن أنس ، ص 651 ، الحديث رقم 1634 ، والمسند .

أحمد بن حنبل ، ج 2 ، ص 321 ، و اللفظ له .

الإنجازات المادية من زراعة ، و صناعة ، و تجارة ، و عمارة  
و القوانين الاجتماعية ، و التنظيمات الإدارية ، و المعاملات  
الاقتصادية و العلاقات السياسية ، و كل ما يتعلق بحياة  
الإنسان المادية و الاجتماعية .

وقد وردت مادة "عمر" في القرآن الكريم  
بعدة صيغ "أربعة وعشرين مرة" فجاء الفعل  
"عمر" مرتين في سورتين، و "عمر" خمس  
مرات في أربع سور، و "استعمر" و "معمر"  
و"عمارة" مرة واحدة في ثلاث سور مختلفة  
وغيرها من الصيغ.

ففي قوله تعالى ﴿ هو أنشأكم من الأرض و استعمركم  
فيها ﴾<sup>(9)</sup> إشارة إلى البعد الثاني الذي تقوم عليه عملية  
الاستخلاف في الأرض . قال ابن كثير >> استعمركم فيها : أي  
جعلكم عمارة تعمرونها و تستغلونها <<<sup>(10)</sup> وقال الراغب  
الاصفهاني >> أ عمرته الأرض و استعمرته : إذا فوضت إليه

(9) هود ، 61

(10) مختصر تفسير بن كثير . محمد علي الصابوني ج 2 ، ص 224

العمارة»<sup>(11)</sup> . و قال ابن عاشور >> معنى استعماركم :  
أنه أقدركم على عمارتها ، و أعدكم لاستثمار  
ما فيها و هياكم للاستفادة بما عليها و  
فيها و حولها من منافع و خيرات ... و الاستعمار : الإعمار  
، أي جعلكم عامرينها و معنى الإعمار أنهم  
جعلوا الأرض عامرة بالبناء و الغرس و  
الزراع >><sup>(12)</sup> .

و قد استعمل ابن خلدون هذا المصطلح  
القرآني في تاريخه مرارا و تكرارا ، و منها قوله في المقدمة  
: >> الحمد لله الذي ... أنشأنا من الأرض نسما و  
استعمارنا فيها أجيالا و أمما ، و يسر لنا منها أرزاقا و  
قسما >><sup>(13)</sup> . و منها كذلك افتتاح المقدمة الأولى من  
الكتاب الثاني من تاريخه في أخبار العرب بقوله : >> اعلم أن  
الله سبحانه و تعالى اعتمر هذا العالم بخلقه ، و كرم بني آدم

(11) معجم مفردات ألفاظ القرآن . الأصفهاني ، ص 359

(12) التحرير و التنوير . ابن عاشور ، ج 12 ، ص 108

(13) المقدمة . ابن خلدون ، ص 3

باستخلافهم في أرضه ، و بثهم في نواحيها  
لتمام حكمته ... >> (14) .

و استناد إلى هذا المصطلح بنى أسس علمه الذي  
يبحث في أحوال الدول و الممالك ، و عوامل ازدهارها  
و أسباب سقوطها و تاريخ البشر فوق الأرض ، و أساليبهم في  
الصراع على خيراتها و التنافس على حيازة السيادة فيها  
، و إقامة الحضارات و سماه علم العمران ، و هو لا يعني علما  
معينا ، بل يضم مجموعة من العلوم كعلم التاريخ و علم  
الاجتماع ، و علم الإناسة ، و علم النفس و التربية فقال : >>  
هذا الاجتماع ضروري للنوع الإنساني و إلا لم يكمل  
وجودهم و ما أراد الله من اعمار العالم بهم و  
استخلافه إياهم و هذا هو معنى العمران الذي جعلناه موضوعا  
لهذا العلم >> (15) . و بذلك استطاع ابن خلدون أن يؤصل  
هذا المصطلح ، و يربطه ربطا و ثيقا بالنظرية القرآنية  
في الاستخلاف .

---

(14) العبر . ابن خلدون ، ج 3 ، ص 3

(15) المقدمة . ابن خلدون ، ص 43

و كما جعل الله الإحساس بالعبودية جزءا أصيلا من الكيان البشري كذلك كان العمران جزءا أساسيا من تكوين الإنسان الفطري ، فقد ربط الله بينه وبين حاجات الإنسان الأساسية ربطا عميقا يجعله مدفوعا إلى الإعمار دفعا لأنه ليس بمقدوره أن يتوقف عن السعي في مناكب الأرض لارتباط هذا السعي بوجوده ، كما هو الحال في حاجته الدائمة إلى الغذاء والكساء والمأوى و غريزة حب البقاء التي تدفعه إلى التناسل و النزعة الجماعية التي تحمله على العيش مع غيره و ما إليها ﴿ فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ﴾ (16) .

و هذا ما يفسر حركة الإنسان فوق الأرض و تفاعله مع مختلف المظاهر الطبيعية منذ فجر التاريخ ، و سعيه الدائم لتسخيرها بما وهبه الله من طاقات عقلية ، و قدرات جسمية ، و قد استطاع - من خلال هذه الحركة الدائبة - أن يغير ، و يبذل ، و يصنع ، و يتفنن في استخدام موارد الطبيعة إلى أن أحالها مصدرا غنيا ، يزوده بما يحتاج إليه من

(16) الروم ، 30

أصناف المآكل و المشارب و الملابس ، و أنواع المساكن ، و وسائل النقل ، و أساليب الراحة و الرفاهية .

و على مرّ التاريخ ، ظهرت آثار سعيه في الأرض واضحة >> و نحن نشاهد عجائب صنعه في المعدن و النبات و في البر و البحر و الهواء ، فهو يتفنن و يتدع ، و يكتشف و يخترع ، و يجد و يعمل ، حتى غير شكل الأرض فجعل الحزن سهلا ، و الماحل خصبا ، و الخراب عمراننا ، و البراري بحارا أو خلجانا ، و ولد بالتلقيح أزواجا من النبات لم تكن ... و قد تصرف في أبناء جنسه من أنواع الحيوان كما يشاء بضروب التربية و التغذية و التوليد و هو ينتفع بكل نوع منها ، و يسخره لخدمته كما سخر القوى الطبيعية و سائر المخلوقات >><sup>(17)</sup>

و يتحقق الجانب العمراني - في المنظور القرآني - على ثلاث مستويات و فقا للمقاصد العامة للشريعة و هي : الضرورية التي يتحتم على الإنسان توفيرها لأن حياته لا تستقيم بدونها ، و إذا فقدت اختل نظام الحياة ، و عمت

---

(17) تفسير المنار . محمد رشيد رضا ، ج 1 ، ص 260



الفوضى و المفاسد ، و هي ترجع إلى حفظ خمسة أشياء :  
الدين ، و النفس ، و العقل ، و النسل ، و المال . و الحاجة :  
و هي لا تتوقف عليها صيانة الأركان الخمسة  
السابق ذكرها ، و إنما يحتاج إليها الناس للتوسعة  
و دفع الضيق و الحرج ، و القدرة على تحمل مشاق  
التكليف ، و أعباء الحياة بما تيسر لهم من طرق التعامل و التبادل  
و سبل العيش . و التحسينية : و هي التي يسعى  
الإنسان من خلالها إلى دفع مستوى الحياة إلى  
مزيد من اليسر و السهولة بتيسير سبل  
التمتع بالطيبات ، و الانتفاع بالخيرات ، و توفير حد  
أعلى من الكماليات (18) .

و انطلاقاً مما سبق ، فإن عملية الاستخلاف - في الخطاب  
القرآني - لا يمكن أن تتم على وجهها الصحيح إلا إذا تكامل  
فيها الإيمان و العمران و توازى فيها السعي نحو التزقي الروحي ،  
مع جهود التزقي المادي و المدني فإذا اتجه اهتمام

---

(18) راجع : الموافقات . الشاطبي ، ج 2 . و مقاصد الشريعة ، ابن

عاشور .

الإنسان نحو جانب دون الآخر اضطربت حركته و اختلت  
و فقد توازنه .

وقد استطاعت الحضارة الإسلامية - في عصورها الزاهرة -  
أن تتجاوز المادية اليهودية الجافة ، والرهبانية المسيحية المفرطة في  
الزهد والتقشف ، وأن تتفاعل بشكل متميز مع قيم الوحي  
الصحيحة ، وأن تجسد هذا التوازن بين القيم المادية والقيم  
الروحية في أروع صوره ، وأن تحقق - بذلك - إنسانية الإنسان  
الذي أكرمه الله ، وأسجد له الملائكة ، وحمله الأمانة وجعله  
مستخلفا في الأرض ، وأن تجعل إنجازاتها كلها في خدمته . وهذه  
هي الحضارة الإنسانية المنشودة التي يدعونا القرآن إلى بنائها .

الفصل الخامس  
الأرض ميدان الاستخلاف



لقد حددت النصوص القرآنية الكريمة في مواضع عديدة المجال الذي  
هياه الله سبحانه وتعالى للإنسان ليأشر فيه عملية الإعمار التي تتحقق من  
خلالها مهمة الاستخلاف التي أناطه بها ، وذلك انطلاقاً من التصور القرآني  
لحقيقة الوجود الذي يقوم على طرفين أساسيين مختلفين هما الله والعالم .  
وتحدد الصلة بينهما من خلال خضوع الطرف الثاني للطرف الأول  
باعتباره خالقه و مبدعه الأزلي الأبدي ، وقيومية الطرف الأول  
على الطرف الثاني .

وينقسم العالم بدوره إلى طرفين هما : الإنسان وسائر المخلوقات الأخرى  
وهما يتساويان في المخلوقية لله تعالى ، وفي خضوعهما لنفس القانون الإلهي في  
السيطرة والتدبير وتحديد المصير. وتحدد الصلة بينهما كذلك من كون الإنسان  
سيداً ، و العالم بكل مكوناته الحية والجمدة مسخراً له . وهذا الجزء من العالم هو  
الميدان الذي حدده الله للإنسان ليقوم فيه بمهمته الاستخلافية ، والذي  
عبرت عنه الآيات الكريمة أحياناً بمصطلح " الأرض " و أحياناً أخرى بـ  
" الأرض والسماوات " معاً في إشارة إلى أن الإنسان سيد هذه الفضاءات  
الفسيحة كلها ، ويطلق عليه العلماء اسم " الكون " فما هي الدلالات والأبعاد  
التي تكتسيها كل من كلمتي " الأرض والكون " في ضوء التصور القرآني ؟ .

لقد وردت كلمة " الأرض " في القرآن الكريم في مواضع كثيرة جدا بلغت 461 مرة ودلت على معان عديدة مرتبطة كلها بالوجود الإنساني وتشترك جميعا في كون الأرض المكان الذي أعده الله لاستقرار الإنسان والميدان الحقيقي للاستخلاف .

وهناك نصوص صريحة دلت بوضوح على أن الأرض هي التي تتم فيها العملية الاستخلافية كما ورد في قوله تعالى ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾ (١) وقوله أيضا ﴿ولقد مكناكم في الأرض وجعلنا لكم فيها معاش قليلا ما تشكرون﴾ (٢) وقوله تعالى ﴿وهو الذي جعلكم خلائف في الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم﴾ (٣) وقوله كذلك ﴿هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها﴾ (٤) ، وقوله ﴿هو الذي جعلكم خلائف في الأرض﴾ (٥) وقوله تعالى ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾ البقرة (36) .

---

<sup>1</sup> ( البقرة - 30 .

<sup>2</sup> ( الأعراف - 10 .

<sup>3</sup> ( الأنعام - 165 .

<sup>4</sup> ( هود - 61 .

<sup>5</sup> ( فاطر - 39 .

والأرض هي الكوكب الذي نعيش عليه ، وهو واحد من الأجرام السماوية العديدة التي تسبح في الفضاء ، ونقصد بها كل ما يحتويه هذا الكوكب من بحار ويابسة ، وهواء وماء ، وما يدب فوقها من أحياء ، وما يزخر به جوفها من ثروات وكوز ، وعليه فإن الأرض كناية عن الوجود كله بما فيه من مخلوقات مسخرة للإنسان حية وجامدة ، سواء أكانت معروفة أو مجهولة .

ولعل تكرار كلمة " الأرض " مرارا في الآيات القرآنية للدلالة على الميدان الذي سيمارس فيه الإنسان حركته الاستخلافية ، يعود إلى كونها المصدر الذي خلق منه ، حيث يجمع بينهما وحدة العنصر ووحدة المأني والمصير ، فهما يتحدان في مصدر الوجود الذي عبر عنه قوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴾ (6) ، وقوله عز وجل ﴿ مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴾ (7) ، والذي يوحى بالترابط التكويني بين الإنسان والأرض ويؤكد أنه خلق من عناصرها .

ثم إن الأرض هي المكان الوحيد - في هذا الفضاء - الذي تتوفر فيه الظروف المناسبة التي تتيح للإنسان أن يعيش حياة عادية ومستقرة ، ابتداء

---

<sup>6</sup> ( نوح - 17 .

<sup>7</sup> ( طه - 55 .

من الهواء الذي يستشقه والغذاء الذي يتناوله ، والماء الذي يشربه ، والجاذبية التي تشده إلى السطح ، ودرجة الحرارة التي تستقبلها الأرض ، وكل ما يتصل اتصالا مباشرا بطبيعة تكوينه العضوي ، وهو ما لا يوجد مثله في مكان آخر خارج الأرض .

أضف إلى ذلك أن الأرض هي المكان الوحيد أيضا والمناسب الذي يستطيع الإنسان فيه أن يحقق وظيفته الاستخلافية التي تتجلى في الزراعة والصناعة والتجارة وال عمران وكل ما يتصل بها . وهي تعد بذلك الميدان الواسع الذي ينطلق فيه على سجيته ، ومهما تقدم علمه وتطور فكره وسمت به اختراعاته فطار في أقطار الفضاء ، وغزا الكواكب الأخرى ، تظل الأرض هي المكان الذي يشده بقوة ، فيعود إليه في آخر المطاف ليجد فيه الاستقرار والسكينة ، وهذا ما أثبتته التاريخ ، فكل حضارات الدنيا قامت فوق الأرض .

وفي هذا الإطار ، يستعمل المفكر الإسلامي " مالك بن نبي " مصطلح " التراب " ليعبر به عن ميدان الاستخلاف ، وهو يقصد به القيمة الاجتماعية التي تكتسيها الأرض وخيراتها الظاهرة والباطنة عندما يستغلها الإنسان ، وما ينتج عن ذلك من حركة بناءة تسهم في تطوير المجتمع ودفعه



إلى الأمام في زمن معين . وهو بذلك يعد التراب مقوما أساسيا من مقومات بناء الحضارة التي تشمل - بالاضافة إلى التراب - الإنسان والوقت (٨). ونحن نختلف مع من ينتقدون مالك بن نبي في اختيار هذا المصطلح ويعيبون عليه حصر نطاق التسخير الإلهي في الجانب الجغرافي المرتبط بالتربة وإصلاحها وإعدادها للزراعة (٩). لأننا نرى أن "التراب" عنده كناية عن الأرض جميعا ، وهذا من قبيل إطلاق الجزء على الكل وهو - في نظرنا - يكاد يكون مرادفا للفظ الأرض الذي استعمله القرآن الكريم كثيرا .

أما الكون فنقصد به هذا العالم الواسع الذي يزخر بالكواكب السيارة والنجوم المضيئة والأقمار والشموس المختلفة الأحجام ، كما نعني به أيضا كل المكونات التي تشكل الأرض بجبالها وبحارها ، وسهولها ، وأنهارها ، ومائها ، وهوائها ، وكائناتها الحية وخيراتها البادية والمذخورة .

و القرآن الكريم عندما يحدثنا عن هذا الكون المادي في آيات كثيرة ، يفصل في شموله وتنوعه واختلافه ، وفي حركته الدائبة ، وتغيره

---

<sup>8</sup> ( شروط النهضة - مالك بن نبي - ص 131 وما بعدها .

<sup>9</sup> ( فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي - د. سليمان الخطيب ، ص 83 .

المستمر ، وفي انتظامه ، واطراد قوانينه وارتباطها بعضها ببعض ، وفي التقدير العجيب لكميات المخلوقات (10) ، بحيث لا يحدث فيه فوضى أو اختلال .

ولم يرد في القرآن الكريم هذا المصطلح ، وإنما استعمله العلماء للدلالة على سعة المجال الذي طوعه الله سبحانه وتعالى للإنسان ليسعى فيه ويستغله لإنجاز مهمته الاستخلافية وأقرب إشارة قرآنية إلى هذا المصطلح قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ (11) فالكون بهذا المعنى هو الذي كوَّنه الله وخلقه . ويرادف مصطلح " الكون " عند الماديين كلمة " الطبيعة " التي يطلقونها على الوجود كله ، وقد جاءت هذه التسمية من اعتقادهم بعدم وجود خالق لهذا الكون ، وهم يبررون التغيرات التي تطرأ على المادة والنظام الدقيق الذي يحكم حركتها بأسباب ذاتية ترجع إلى طبيعة المادة نفسها التي يرون أنها خرجت من العماء الصرف ، والعدم الكلي والمصادفة . أما كلمة الطبيعة عند المفكرين المسلمين فهي تعني " عالم الشهادة " أي كل ما يصل إلى حواسنا المجردة أو المستعينة بوسائل تقنية وأساليب علمية ، وهذا المصطلح يستثني عالم الغيب الذي يؤمن المسلمون بوجوده وبقصور العقل والعلم عن إدراكه لاستثثار الله سبحانه وتعالى به .

10 ( نظام الإسلام - محمد المبارك - ص 38 وما بعدها .

11 ( النحل - 40 .

ومما سبق ، يتضح لنا أن الكون الواسع كله مخلوق ليكون مجالاً خصباً لسعي الإنسان وحركته الدائبة ، وميداناً فسيحاً يمارس فيه سيادته الكاملة ويتصرف في موجوداته للانتفاع بها على قدر ما يتيح له علمه بقوانين المادة و نواميس الوجود .

غير أن الأرض تبقى - في جميع الأحوال - هي المكان المناسب المهيأ لاستقبال الإنسان لإنجاز مهمته الاستخلافية إذ لا يمكنه أن يبني ويشيد ويعمر إلا فوق الأرض ، لذلك أشارت النصوص القرآنية الكريمة في صراحة ودقة إلى ارتباط العملية الاستخلافية الوثيق بالأرض ﴿إني جاعل في الأرض خليفة﴾<sup>(12)</sup> ﴿ولكم في الأرض مستقر ومتاع إلى حين﴾<sup>(13)</sup> .

وحتى يستطيع الإنسان أن يحقق وظيفته الاستخلافية في الأرض شاءت إرادة الله سبحانه وتعالى أن تكون هذه الأرض مهياً لاستقباله صالحة لاستقراره ، معدة لأن تتفاعل موجوداتها كلها مع حركته فوقها حيث : >> حدد الله سبحانه أبعادها وقوانينها وأحجامها بما يتلاءم و المهمة الأساسية لخلافة الإنسان في العالم وقدرته على التعامل

<sup>12</sup> ( البقرة - 30 .

<sup>13</sup> ( البقرة 36 .

العمراني مع الطبيعة تعاملًا إيجابيًا فاعلا >> (14)، وتتجلى مظاهر هذا الإعداد الرباني للجو المناسب للاستخلاف في كل ما يحيط بالإنسان من جمادات وحيوانات وأجرام سماوية وغيرها .

فالشمس والقمر مسخران بأمر الله تعالى لإرسال الضوء والدفء بمقدار محدد وكمية مناسبة لا تزيد ولا تنقص ولا تختل ، وإلا تعرضت الأرض للفناء ، فلو أعطت الشمس نصف كمية الإشعاعات التي تعطيها حاليا لتجمدت الأرض بما عليها من كائنات حية ، ولو أن الكمية الحالية زادت بالنصف لاحتزقت الأرض وأمست الموجودات رمادا .

و مثل ذلك النسبة المضبوطة لكمية الأوكسوجين في الهواء والتي تقدر بـ 21 % ، فلو أنها ارتفعت إلى 50 % فإن جميع المواد القابلة للاحتراق في العالم تصبح عرضة للاشتعال مع وجود أقل شرارة. ثم إن هناك توازنا بين هذه الكمية من الأوكسجين ونسبة ثاني أكسيد الكربون في الهواء فلو زادت النسبة في مادة على حساب الأخرى لنوى النبات ومات الحيوان (15) وانخفض الإنسان من الأرض .

---

14 ( حول إعادة تشكيل العقل المسلم - د. عماد الدين خليل - ص 97،96 .

15 ( روح الدين الإسلامي - عفيف عبد الفتاح طيارة - ص 57 .

و تعاقب الليل والنهار بالمدة المطلوبة حسب فصول السنة يتيح لأنواع الثمار والنباتات أن تنمو بشكل طبيعي حتى تأخذ حاجتها الكافية من الشمس دون إفراط أو تفريط .

ودوران الأرض حول نفسها وحول الشمس بسرعة دقيقة له أثره القوي في وجود الحياة واستقرارها ، فهي تدور حول نفسها بسرعة ألف ميل في الساعة وتدور حول الشمس بسرعة خمسة وستين ألف ميل في الساعة . فلو أن الأرض زادت قليلا من سرعتها المضبوطة لتاثرت المنازل وتفككت الموجودات ، ولو أن هذه السرعة نقصت قليلا لهلك من على الأرض من حر وبرد<sup>(16)</sup>.

و البحار والمحيطات على امتدادها الشاسع ، وأمواجه العاتية وجوفها المظلم العميق الزاخر بأنواع الكائنات الحية ، ومصادر الرزق الوفيرة ممهدة للإنسان ليركب سطحها في تنقلاته ، ويغوص في أعماقها ليستخرج كنوزها ويقتات منها .

والترية جاهزة بطبيعة خلقتها لاحتضان البذور بعد عملية الزرع وإخراج النبات بمختلف أشكاله وأنواعه ليكون غذاء للإنسان . والحيوانات مهيأة - على الرغم من ضخامة جسمها الذي يفوق حجم جسم الإنسان

---

<sup>16</sup> ( مع الله في السماء - د. أحمد زكي - ص 78 .

وقوة عضلاتها التي تعادل أضعاف قوته - لأن تنقاد إليه ليدجنها ويستعملها في سفره ، وينتفع بلحومها وأصوافها وأوبارها . قال تعالى ﴿ أولم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاما فهم لها مالكون وذلناها لهم فمئها ركوبهم ومنها يأكلون ولهم فيها منافع ومشارب أفلا يشكرون ﴾ (17) ، قال القرطبي : « أي سخرناها لهم حتى يقود الصبي الجمل العظيم و يصرفه كيف يشاء لا يخرج عن طاعته » (18) . وهكذا يبدو لنا أن كل ما في هذا الكون يتحرك في نظام دقيق ، وترابط عجيب ونسق معين لا يخرج عنه ولا يتجاوزه مصداقا لقوله تعالى ﴿ إنا كل شيء خلقناه بقدر ﴾ (19) ، وهذا من أجل تهيئة وتوفير الظروف المناسبة التي يتحرك فيها الإنسان فوق الأرض لإعمارها .

وقد تنبه العلماء إلى التناسب الموجود بين قدرات الإنسان ، وسائر الموجودات في هذا العالم ، وخلصوا من ذلك إلى تقرير أنه أمر مقصود من الله سبحانه وتعالى ليحقق إرادته في استخلاف الإنسان في الأرض ، ومن

( 17 ) يس - 71،72،73 .

( 18 ) الجامع لأحكام القرآن - القرطبي - ج 15 - ص 55 .

( 19 ) القمر - 49 .

ذلك ما ورد في كتاب " تفصيل النشأتين " للراغب الإصفهاني ، الذي أكد أن الإنسان هو المقصود من العالم ، وأن كل ما عداه موجود لأجله فقال : >> المقصود من العالم وإيجاده شيئاً بعد شيء هو أن يوجد الإنسان ، فالغرض من الأركان أن يحصل منها النبات ، ومن النبات أن تحصل الحيوانات ، ومن الحيوانات أن تحصل الأجسام البشرية ، ومن الأجسام البشرية أن يحصل منها الأرواح الناطقة ، ومن الأرواح الناطقة أن يحصل منها خلافة الله تعالى في الأرض ... وجعل تعالى الإنسان سلالة العالم وزبدته ، وهو المخصوص بالكرامة كما قال تعالى ﴿ ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً ﴾ ، وجعل ما سواه كالمعونة له ، كما قال تعالى في معرض الامتنان ﴿ هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ﴾ >> (20) .

وقد تناول ابن رشد هذه الفكرة نفسها ، وأكد أن هذا التوافق العجيب الموجود بين الإنسان والكون من آثار القدرة الإلهية الحكيمة فقال >> إن جميع الموجودات التي ههنا موافقة لوجود الإنسان ، وهذه الموافقة هي ضرورة من قبل فاعل قاصد لذلك يريد . إذ ليس يمكن أن تكون هذه الموافقة بالاتفاق . فأما كونها موافقة لوجود الإنسان فيحصل اليقين بذلك

( 20 ) تفصيل النشأتين - الراغب الإصفهاني - ص 100 .

باعتبار موافقة الليل والنهار ، والشمس والقمر ، لوجود الإنسان ، وكذلك موافقة الأزمنة الأربعة له ، والمكان الذي هو فيه أيضا وهو الأرض . وكذلك تظهر أيضا موافقة كثير من الحيوان له ، والنبات والجماد ، وجزئيات كثيرة مثل الأمطار والأنهار والبحار وبالجملة الأرض والماء والنار والهواء ، وكذلك أيضا تظهر العناية في أعضاء الإنسان وأعضاء الحيوان ، أعني كونها موافقة لحياته ووجوده >> (21).

وقد أشار أيضا العلامة " كريسي موريسون " إلى هذا التصميم الدقيق والعجيب للكون وقرر أن ذلك لا بد وأن يكون من عمل قوة حكيمة فقال >> إن استعراض عجائب الطبيعة يدل دلالة قاطعة على أن هناك تصميمًا وقصدًا في كل شيء . إن ثمة برنامجًا ينفذ بحذافيره طبقًا لمشيئة الخالق عز وجل >> (22).

والله سبحانه وتعالى حينما أعد الأرض لتكون مهياة لحياة الإنسان ، لم يشأ أن يجعلها ممهدة تمهيدا كاملا فيميل البشر إلى الكسل ، ويركنون إلى السلبية ، كما لم يشأ أيضا أن يجعلها لغزا محيرا ، ومجالا مستغلقا عن النظر

---

<sup>21</sup> ( مناهج الأدلة ، ابن رشد - ص 151، 152 .

<sup>22</sup> ( الإنسان لا يقوم وحده - كريسي موريسون - ص 186 .



وغامضا يأبى كل محاولات الفهم والكشف والاستفادة (23) ، بل قدر أن تكون في متناول الإنسان شرط أن يوظف طاقاته العقلية والجسمية ويستتفرها لبدأ رحلة المقاومة والتحدي ، والدأب والمعاناة ، والفشل والنجاح والإبداع والإخفاق ، حتى تكتسي حياته فوق الأرض طابع الاجتهاد المفضي إلى الإعمار والبناء الحضاري وهكذا كانت تجربة الإنسان الحضارية على مر العصور قائمة على المحاولة والاجتهاد حتى استطاع أن يبني الحضارة وال عمران .

وقد عبر القرآن الكريم عن هذه التهيئة بعبارة "التذليل" التي توحى بمعاني التمهيد والتسهيل والتيسير والإعداد والتجهيز الذي يمكن الإنسان من مباشرة عملية الاستخلاف . قال تعالى ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ (24) .

قال القرطبي في تفسير هذه الآية >> أي سهلة تستقرون عليها ، أي لم يجعل الأرض بحيث يمتنع المشي فيها بالحزونة والغلظة ، والأمر في الآية " فامشوا في

---

( 23 ) حول إعادة تشكيل العقل المسلم - د. عماد الدين خليل - ص 97 .

( 24 ) الملك - 15 .

مناكبها " للإباحة وإظهار الامتان... » (25). وقال ابن كثير «... ذكر نعمته على خلقه في تسخيرهم الأرض وتذليله إياها لهم بأن جعلها قارة ساكنة لا تميد ولا تضطرب بما جعل فيها من جبال ، وأنبع فيها من العيون ، وسلك فيها من السبل ، وهياً فيها من المنافع ومواضع الزروع والثمار » (26) .

وقال سيد قطب « والأرض الذلول كانت تعني في أذهان المخاطبين القدامى هذه الأرض المذلة للسير فيها بالقدم ، وعلى الدابة ، وبالفلك التي تمخر البحار ، والمذلة للزرع والجني والحصاد ، والمذلة للحياة فيها بما تحويه من هواء وماء وتربة ... وهي مدلولات مجملة يفصلها العلم فيما اهتدى إليه حتى اليوم تفصيلاً يمد في مساحة النص القرآني في الإدراك . فمما يقوله العلم في مدلول الأرض الذلول : إن هذا الوصف " ذلولاً " الذي يطلق عادة على الدابة مقصود في إطلاقه على الأرض . فالأرض هذه التي نراها ثابتة مستقرة ، ساكنة هي دابة متحركة ، بل راحة راكضة ، مهطعة ! وهي في الوقت

---

(25) الجامع لأحكام القرآن ، القرطبي - ج 14 - ص 214 .

(26) تفسير ابن كثير ، ج 4 - ص 398 .

ذاتة ذلول لا تلقي براكبها عن ظهرها ، ولا تتعثر خطاها ، ولا تخضه ، وتهزه ، وترهقه كالدابة غير الذلول >> (27).

ثم يوضح سيد قطب طبيعة هذه الحركة التي تتجلى في دوران الأرض حول نفسها بسرعة مذهلة لا يتصورها العقل الإنساني ، ودورانها حول الشمس بأضعاف أضعاف سرعة دورانها حول نفسها : >> ومع هذا الركض كله يبقى الإنسان على ظهرها آمنا مستريحا مطمئنا معافى لا تتمزق أوصاله ، ولا تتناثر أشلاؤه ، بل لا يرتج مخه ولا يدوخ ولا يقع مرة عن ظهر هذه الدابة الذلول >> (28).

أما محمد سعيد رمضان البوطي فيقول معلقا على هذه الآية الكريمة محللا طبيعة هذه الأرض الذلول التي صارت لينة هينة في يد الإنسان يصنع بها ما يشاء >> ألا ترى إلى كلمة " ذلولا " في قوله عز وجل ﴿ هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا ﴾ وهي صيغة مبالغة بمعنى مذللة ، كيف صورت الأرض ، وكأنها مائدة وضعت بين يدي الإنسان ، بكل ما على ظهرها

---

(27) في ظلال القرآن - سيد قطب - ج 6 - ص 3637 .

(28) المصدر نفسه - ج 6 - ص 3637 .

من خير ليعمل فيها قدرته العضلية ، ومواهبه الفكرية ، وليستخرج منها كل ما يطمح إليه من أسباب السعادة والنفعة >> (29).

وبعد أن أحاط الله سبحانه وتعالى الإنسان بهذه الموجودات المناسبة لخلقته ، المتجاوبة مع طبيعة تكوينه ، ووظيفته الاستخلافية ، المتفاعلة مع حركة عقله وجسمه ، دعاه إلى الانطلاق في أرجاء هذا الكون ليبدأ رحلته المقدره ، وألهمه أن جميع ما يحيط به مسخر له في الأصل ، قابل للخضوع له مخلوق لخدمته وينفعه ويطيعه .

والمصفح لآيات القرآن الكريم يقف على هذا النداء الإلهي المتكرر للإنسان بالإقبال على الكون بالنظر والتفكير والبحث والكشف والاستغلال و الانتفاع ، مؤكدا في كل مرة أن الأرض وما حوت والسموات كلها مملكته الواسعة التي خوله الله أن يتصرف فيها بعقله المدبر ، وإرادته الحرة ويسخرها لتلبية حاجاته الضرورية وإشباع رغباته المختلفة ، والقيام بأعباء الاستخلاف التي كلفه الله بها ﴿

---

(29) منهج الحضارة الإنسانية في القرآن - د. محمد سعيد رمضان

قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة الآخرة  
إن الله على كل شيء قدير ﴿٣٠﴾.

وقد فصلت الآيات القرآنية الكثيرة مظاهر هذا التسخير  
ومستوياته المتعددة والمختلفة وعبرت عنه بلفظ التسخير  
تارة ، ولفظ التذليل تارة أخرى واستخدمت أحيانا كلمات "التمكين"  
و"الجعل" و"الخلق" وسنكتفي هنا بمادة "سخر" لتوضيح بعض  
مظاهر هذا التسخير والذي يعني الإخضاع والإطاعة والإحدام  
كما يقرره اللغويون .

ففي سورة النحل يشير الله سبحانه وتعالى إلى مختلف  
المخلوقات التي سخرها للإنسان فضلا منه ونعمة ، ويعدددها  
كالأنعام والجمال و الخيل و البغال و الحمير . والمطر والنبات  
والثمار ، و الليل و النهار ، و الشمس و القمر و النجوم  
والبهار التي يأكل من أحيائها لحما طريا ويستخرج  
منها حلية يتزين بها و الفلك يخبر به العباب (٣١) ﴿٣١﴾ وسخر  
لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك

<sup>30</sup> ( العنكبوت - 20 .

<sup>31</sup> ( راجع سورة النحل من الآية 5 إلى 15 .

لآيات لقوم يعقلون وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه إن في ذلك لآية  
لقوم يذكرون وهو الذي سخر لكم البحر لتأكلوا منه لحما طريا  
وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا  
من فضله ولعلكم تشكرون ﴿٣٢﴾ .

أما في سورة إبراهيم فنقرأ عن تسخير الليل والنهار والشمس والقمر  
والفلك والأنهار قوله تعالى ﴿٣١﴾ الله الذي خلق السموات والأرض وأنزل  
من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم وسخر لكم الفلك لتجري  
في البحر بأمره وسخر لكم الأنهار وسخر لكم الشمس والقمر دائبين  
وسخر لكم الليل والنهار وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا نعمة الله  
لا تحصوها إن الإنسان لظلوم كفار ﴿٣٣﴾ .

قال ابن كثير في تفسير هذه الآيات >> يعدد الله تعالى نعمه على خلقه  
بأن خلق لهم السموات سقفا محفوظا والأرض فراشا ، وأنزل من السماء  
ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ما بين ثمار وزروع مختلفة الألوان  
والأشكال والطعوم والروائح والمنافع ، وسخر الفلك بأن جعلها طافية على  
تيار ماء البحر تجري بأمر الله تعالى ، وسخر البحر لحملها ليقطع المسافرون

٣٢ ( النحل - 12، 13، 14 .

٣٣ (إبراهيم - 32، 33 .

بها من إقليم إلى إقليم جلب ما هنا إلى هناك ، وسخر الأنهار تشق الأرض من قطر إلى قطر رزقا للعباد من شرب وسقي ، وغير ذلك من أنواع المنافع ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين أي يسيران لا يفتران ليلا ولا نهارا ، ...»<sup>(34)</sup>.

و على الرغم من هذه السيادة المطلقة للإنسان على هذا الوجود كله والذي جعله الله تعالى الميدان الواسع للاستخلاف ، إلا أنه نبهه إلى أن هناك استثناءات لا تطورها قدراته ، ولا يمكنه أن يدرك كنهها وطبيعتها مهما تقدم به العلم ، فهي بذلك خارجة عن نطاق سيطرته و سلطانه .

ومن جملة هذه الأمور المستثناة نذكر على سبيل المثال : النظام الكوني القائم على قوانين ثابتة و سنن مطردة لا سبيل إلى تغييرها أو تبديلها ، فالإنسان باستطاعته أن يستفيد من الشمس في مجالات مختلفة وفي ميادين شتى ، ويتفنن في استغلال طاقتها وتسخيرها لمنافعه لكنه لا يستطيع أن يغير نظامها ، أو يتحكم في نسبة الأشعة التي تصله منها .

---

<sup>34</sup> ( تفسير ابن كثير - ج 4 - ص 139 .

و مثلها في ذلك أيضا الأرض و القمر ، و النجوم و سائر الكواكب ، فهي مسخرة له لينتفع بها ، لكنه لن يصل - مهما أوتي من العلم - إلى تفويض نظامها الإلهي ، واستبداله بآخر من عنده . قال تعالى ﴿ لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون ﴾ (35) .

ومنها أيضا خضوع الإنسان لأطوار الحياة التي قدرها له ، وهي ضرورة مروره بمرحلة الطفولة الضعيفة ، وبعدها قوة الشباب ، ثم ضعف الشيخوخة فليس بإمكان الإنسان أن يقلب موازين هذا النظام الثابت ، ويغير هذا التقدير الإلهي لأن ذلك خارج عن نطاق التسخير . وقد بذل علماء الأحياء في هذا المجال جهودا مضيئة انتهت كلها باعترافهم بالعجز الكامل عن إدراك سر الحياة وتغيير مجراها . قال تعالى ﴿ الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة ﴾ (36) .

وفي هذا الإطار أيضا تندرج ظاهرة الموت التي قضى الله أن تكون من نصيب كل حي فهي أيضا لا تدخل في نطاق سيادة الإنسان على الكون إذ

(35) يس - 39 .

(36) الروم - 54 .



ليس من سبيل إلى التحرر من هذا القضاء الإلهي الذي قدر الفناء لكل مخلوق. وعليه فالإنسان عاجز بطبيعة تكوينه عن مغالبة الموت أو القضاء عليه لأن الأمر الرباني صدر بهذا الشأن في حزم وقوة ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ (37). ومثله في ذلك ظاهرة الروح التي شاءت الإرادة الإلهية أن تحجب حقيقتها عن مدارك الإنسان وعلمه ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ (38).

وقد استثنى الله سبحانه وتعالى هذه الظواهر وغيرها من التذليل والتسخير ، وأخرجها من نطاق السيادة الكاملة التي وهبها للإنسان على الموجودات الكونية لحكمة يعلمها ولعلمه الأزلي السابق بإمكانات الإنسان وقدراته العقلية والنفسية ، وما سوف يتمخض عنه سيره في الأرض وممارسته لعملية الاستخلاف ، وربما للحد من جموح العقل الإنساني وغروره وإرغامه على الاعتراف بعجزه أمام هذه الظواهر التي لا يطيقها ، ولا قدرة له على تجاوزها ، وهو يراها تتحداه على الدوام باستعصائها على كل محاولات التغيير والتبديل.

---

37 ( آل عمران - 185 .

38 ( الاسراء - 85 .

وهذه الظواهر في حد ذاتها شواهد قوية على وجود خالق حكيم قادر  
مدبر ، تنبه الإنسان - كلما تقدم أشواطا كبيرة في العلم وغمرته نشوة  
الانتصار والاعجاب بعقله - إلى أن هناك قوة عليا تذكره بوجودها كلما اصطلم  
بهذا الاعجاز الإلهي ، وشعر إزائه بالعجز والضعف ﴿ سنة الله التي قد نحت  
من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ (39) .

الفصل السادس  
العلم مفتاح الاستخلاف



يمثل العلم مقوما مهما من مقومات الإعمار والبناء الحضاري لأي مجتمع من المجتمعات نظرا لدوره الحيوي في تطوير الحياة الإنسانية في مختلف مجالاتها وجوانبها المادية . فما هي المكانة التي أولاها القرآن لدور العلم في تحقيق الاستخلاف ؟ . للإجابة على هذا السؤال سحاول أن نتطرق في البداية إلى العقل ومنزلته باعتباره الجهاز المنتج للمعرفة ، ثم نتحدث - بعد ذلك - عن العلم الذي هو نتيجة للعمليات العقلية المختلفة والنشاطات الذهنية التي يمارسها الإنسان كالنظر ، والتفكير ، والملاحظة والتحليل والاستقراء ، والمقارنة ، والتجربة ، والاستنتاج ، والتي تفضي جميعا إلى فقه قوانين التسخير ، وتحقيق وظيفة الاستخلاف .

## أولا : العقل

إن العقل هو النعمة التي خص بها الله سبحانه وتعالى الإنسان دون سائر مخلوقاته . وهي الهبة الربانية التي شرفه بها فرفعته إلى مصاف السيادة على الكون وأهله لحيازة السلطان الكامل عليه . وهذا العقل الذي استأثر به الإنسان وحده ، هو السر الكبير الذي أودعه الله فيه فاستوجب به التكريم ، وعليه كان مناط التكليف وهو في حد ذاته جوهر الاستخلاف ، مما يوحي بما للعقل من قيمة كبرى ومتميزة في وجود الإنسان فوق هذه الأرض .

والعقل هو وسيلة الإدراك والتمييز ، والحكم والتحصيل . فعن طريقه يستطيع الإنسان أن يرتب محصول الحواس من الصور والمدركات الحسية ، وأن يدرك ما وراءها من المعاني المجردة ، وأن يفهم ويستوعب ما يصدر عن العقول الأخرى ، وأن يمارس التعلم و التذكر والتعرف والفهم والتصرف والتخيل ، وأن يوجد العلاقات بين الأشياء المحسوسة وبين الأمور المعنوية المجردة ويستدل عليها .

و بالعقل أيضا يستطيع الإنسان أن يدرك مضمون الوحي ويفهم مراد الله منه ويستجلي مقاصده وأحكامه ، ويميز بين الحق والباطل وبين العقيدة الصحيحة والدجل والخرافة ، ويكشف عن أحكام الله ويرجح الموافق للشريعة ، ويستبعد المخالف لها .

وعلى العقل أيضا مدار الاجتهاد في الأحكام الشرعية التي لم يرد فيها نص شرعي صريح ، ومن ثم البرهنة عليه . لذلك كله قرر العلماء أن العقل هو أساس التكليف في الإسلام . ولهذا جاء القرآن ليعلي من شأن العقل وبنه إلى أهميته ويجعله حليفا للوحي في قيادة الحياة (١) وتحقيق الاستخلاف . ف : « العقل هو القوة المميزة للمتضادات

---

<sup>1</sup> ( مجلة الإنسان . " خلافة الإنسان بين الوحي والعقل " . د . عبدالمجيد

النجار . - ع 1 . مارس 1990 . ص 7

والمتنافرات التي بني عليها هذا العالم كالصلاح والفساد والخير والشر ، والنفع والضرر ولذلك جعل مناطا للتكاليف الدينية والدينية >> (٢).

وقد نوه القرآن الكريم بالعقل أيما تنويه ، ودعا إلى استخدامه وذكره باسمه وأفعاله ما يقرب من خمسين مرة ، وجاء ذلك بصيغ مختلفة : >> حيث تكرر (24 مرة) بصيغة "تعقلون" ، بين صورة الرجاء (علكم تعقلون) وصورة الاستفهام (أفلا تعقلون) وتكررت (22 مرة) بصيغة "يعقلون" منها 10 صيغ بدون نفي ، و12 صيغة منفية بلا النافية (لا يعقلون) ، ومرة واحدة بصيغة (تعقل) ، في قوله تعالى ﴿لو كنا نسمع أو نعقل﴾ (٣) ، ومرة واحدة بصيغة (يعقلها) في قوله تعالى ﴿...وما يعقلها إلا العالمون﴾ (٤) ، ومرة واحدة بصيغة (عقلوه) في قوله تعالى ﴿يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه﴾ (٥) >> (٦) . كما ذكر أيضا كلمة (أولو الألباب) أي أصحاب العقول في بضع عشرة موضعا .

(٢) آثار محمد البشير الابراهيمي - ج4 - ص 357 .

(٣) الملك - 10 .

(٤) العنكبوت - 43 .

(٥) البقرة - 75 .

ومعظم هذه الصيغ تشير إلى دور العقل في التمييز بين الحق والباطل وإدراكهما على حقيقتهما من خلال التفكير في ملكوت السموات والأرض ، و مخلوقات الله الأخرى كما تشير أيضا إلى حاجة الإنسان إلى العقل والوعي والبصيرة في تعامله مع محيطه ، وتؤكد أنه المعول عليه في أمر العقيدة ، وأمر التبعة والتكليف ، وفي هذا كله تمجيد للعقل ، ودعوة إلى إقامة الحياة كلها على التفكير السليم .

وهذه الإشادة الكبيرة بالعقل ، والتبنيه إلى قيمته مزية عظيمة من مزايا القرآن التي لا يشاركه فيها كتاب سماوي آخر . لذلك بدا واضحا أن عنايته توجهت - منذ اللحظة الأولى - نحو الآفة الكبرى التي أفسدت العقل ، وأطفأت نوره ، وعطلت عمله ، وهي الوثنية التي كانت تمارس تأثيراتها الظلامية على عقل الإنسان ، وتهبط به إلى مادون قيمته التي كرمه الله بها .

وكانت الحكمة من الحملات العنيفة التي قادها الرسول الكريم ضد المعتقدات الوثنية هي : >> تحرير العقل من نفوذها وسلطانها حتى

---

<sup>6</sup> ( الفكر الإسلامي بين العقل والوحي ، د. عبد العال سالم مكرم ، ص 11



يواجه أمانة الدين الجديد صحيحا معافى ، ويؤدي الوظيفة التي خلق لأدائها ، وما هدم أصحاب محمد الأصنام بأيديهم إلا بعد أن هدم محمد الوثنية في نفوسهم ، وبعد أن بنى عقولهم من جديد على صخرة التوحيد >> (7).

وامتدت حركة التحرير هذه لتشمل كل ما يعطل العقل ، ويسيطر عليه من معتقدات فاسدة وأفكار بالية ، فحرر القرآن الإنسان من عقدة الخوف حينما وجهه إلى كتاب الكون المفتوح ، ودعاه إلى تسليط فكره وحواسه عليه ليدرك خلفيات الظواهر الطبيعية ، وانتظامها ، واطراد سننها ، فيتحرر فكره من سلطان الخرافات والأساطير التي كانت تزرع في نفسه الخوف من البرق والرعد والعواصف والظلام وما إليها .

كما حثه على السير في الأرض لربط المقدمات بالنتائج ، والأسباب بالمسببات والنظر في تعاقب الحوادث واقتزائها ، ليتحرر من فكرة فوضى العالم التي كانت تصور له الكون غامضا مجهولا خاضعا للصدفة العمياء .

وبذلك تخلص الإنسان من كل القيود التي كانت تشده إلى الخلف وتلقي غشاوة على عقله ، ولم يعد يدين في توجهاته وسعيه إلا لخالقه

---

(7) آثار محمد البشير الابراهيمي - ج4 - ص 358 .

العظيم : >> فإنه ما من خطوة في تاريخ البشرية حررت العقل وكرمته ووضعتة في موقعه الصحيح كهذه الخطوة : تحويل التوجه الإنساني من التعدد إلى الوحدة ، ومن عبادة العباد إلى عبادة الله وحده ومن عشق الحجارة والتمائيل والأوثان إلى محبة الحق الذي لا تلمسه الأيدي ولا تراه العيون ... كسر للحاجز المادي باتجاه الغيب ، وتمكين للعقل من التحقق بقناعات تعلو على معطيات الحس القريب >> (٨).

وفي ضوء هذا التصور القرآني لحقيقة العلاقة بين الإنسان والكون يحس المؤمن بالانسجام التام مع نواميسه ، ويشعر بعواطف الود التي تربطه به ، وتنتفي من نفسه كل مشاعر الرهبة التي تملؤه بالخوف من مظاهر الطبيعة الجبارة ، وتلجئه إلى تأليه الجمادات والموجودات القوية بشكل سلبي يقضي على طاقاته ، ويضعف إنجاز الحضاري (٩) ويتحرر في الوقت ذاته من أحاسيس العداة التي تدفعه إلى اعتبار الكون خصما عنيدا يجب تحطيمه وإخضاعه في غمرة الصراع معه ، ويحل محل هذه العواطف السلبية الانهزامية والعدائية ، شعور بالتوافق

---

<sup>٨</sup> ( حول إعادة تشكيل العقل المسلم - د. عماد الدين خليل ، ص 35 .

<sup>٩</sup> ( مجلة المسلم المعاصر - د. عبد المجيد النجار : > الإنسان والكون

في التربية القرآنية < ع : - ص 19 .

والانسجام ، حين يعلم أن الكون شريكه في العبودية لله و  
التسبيح له : ﴿ يسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن  
من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان  
حليما غفورا ﴾ (١٠) .

والمتبوع لآيات القرآن الكريم يشد انتباهه هذا الكم الهائل من الآيات  
الكريمة التي تدعو الإنسان وتلح عليه ليستعمل عقله ، ويستنفر حواسه  
ويستغلها لتنمية قدراته العقلية ، ودفعها نحو النظر ، والتفكير ، والبحث  
والتأمل ، لتصل بالمشاهدة والملاحظة والاستبطاء ، والاستقراء إلى حقائق  
الكون وسننه وقوانينه ، وتفتح له مجالات واسعة للإعمار ، وتمد شرايين  
الحياة بالجديد والمتطور على الدوام .

وقد حث الله سبحانه وتعالى الإنسان على توظيف عقله ، ونبهه إلى  
استغلال السمع والبصر ، وحسن استخدامهما ، باعتبارهما نافذة العقل على  
العالم الخارجي والمحيط المادي فقال تعالى ﴿ أفلم يسيروا في الأرض فمكون لهم  
قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها ، فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى  
القلوب التي في الصدور ﴾ (١١) . من هنا ، نفى العقل والفهم عن عطلوا

١٠ ( الاسراء - 44 .

١١ ( الحج - 46 .

حواسهم عن النظر ، وعقولهم عن التفكير ، وعدهم أضل من الأنعام والدواب ﴿ لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل ﴾ (12) >> إن الإنسان بتحريكه هذه القوى والطاقات ، بفتح هذه النوافذ على مصراعها باستغلاله قدراته الفذة حتى النهاية سيصل قمة انتصاره العلمي والديني على السواء ، لأن هذه الانتصارات ستبوءه مركزه المسؤول سيدا على العالمين ، وخليفة الله في الأرض ، وأنه بتجميد هذه الطاقات وقفل نوافذها ، وسحب الستائر والأغشية عليها ، يكون قد اختار بنفسه المنزلة الدنيا التي ما أرادها له الله يوم منحه نعمة السمع والبصر والفؤاد ... منزلة البهائم والأنعام >> (13) .

وتتجلى هذه الدعوة القرآنية إلى استخدام العقل وتوظيف الحواس للتمعن والنظر والتبصر أشد ما تتجلى في أمرين مهمين هما : النظر في الكون ، والسير في الأرض .

(12) الاعراف - 179 .

(13) حول إعادة بناء العقل المسلم - د. عماد الدين خليل - ص 58، 59 .

## 1 - طلب النظر في الكون : إن من بين الميادين الرئيسية التي

دعا القرآن الكريم إلى ارتيادها والبحث فيها ، ودفع الإنسان إلى توظيف عقله واستخدام حواسه لمعرفة خباياها ، واكتشاف أسرارها ميدان الكون الرحيب. فقد حفلت آياته بتوجيهات كثيرة تحث الإنسان على السياحة في جنباته ، والتعرف على ما خفي منه ، والتفكر في آياته واستكناه أسرارها وفهم نظمه ونواميسه .

وفي هذا السياق ، نجده يلفت انتباه الإنسان إلى مختلف الظواهر الطبيعية التي تتكرر أمامه آلاف المرات ، ولا يكلف نفسه عناء التساؤل عن أسبابها ، والبحث في علل حدوثها : كالشمس والقمر ، والأمطار والرياح ، والبرق ، والرعد ، والسحاب والثمار التي تسقى بماء واحد وتختلف طعومها وألوانها ، والأرض التي تحيا وتهتز وتربو بنزول الماء عليها ، والنجوم التي تضيء السماء ليلا فيهدي بها المسافرين في البحر واختلاف الليل و النهار ، وتعاقب الفصول ، والجبال الراسيات وكل ما في الكون من آيات للموقنين . قال تعالى ﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ﴾<sup>(14)</sup> وقال عز وجل ﴿ وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ، ومن كل الثمرات جعل

<sup>14</sup> ( يونس - 101 .

فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآية لقوم  
يتفكرون ﴿١٥﴾

وقال سبحانه و تعالى أيضا : ﴿ فلينظر الإنسان إلى  
طعامه أنا صبينا الماء صبا ، ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حبا  
وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا ﴾ (١٦) وفي  
سورة الغاشية ﴿ أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى  
السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف  
سطحت ﴾ (١٧) .

وفي مواضع أخرى ، يتجاوز القرآن مجرد الدعوة  
إلى النظر ليقرن نتائج هذه الظواهر الطبيعية بمقدماتها في تصوير حي  
لجانب من نظام هذا الكون ، كذكره لنمو النبات بعد نزول المطر ، أو  
سوق الرياح للسحب ثم نزول الماء منها ، كما في قوله تعالى ﴿ والله  
الذي أرسل الرياح فثبیر سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد

١٥ ( الرعد - 3 .

١٦ ( عبس - 24-31 .

١٧ ( الغاشية - 17-20 .

موتها ﴿<sup>18</sup>﴾، وقوله تعالى ﴿وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه﴾ ﴿<sup>19</sup>﴾ .

إن هذه الدعوة الملحة إلى الالتفات إلى الكون ، واستجلاء ما خفي منه ، فيها دفع قوي للإنسان ليتوغل في مجاهل الطبيعة ، ويغوص في أعماقها ، ليس للاستمتاع بما سيكتشفه ، أو لتزجية الوقت والاستجمام وإنما للوصول إلى حقيقة مهمة جدا تتمثل في أن الكون كله يحكمه نظام واحد ، بديع ، دقيق ، مترابط الأجزاء ، منسق الهيئة وتضبطه سنن صارمة مطردة، وقوانين ثابتة تسير بموجبها مادته وحركته فلا تختل ولا تضطرب .

إن وقوف الإنسان على هذه الحقيقة الكبرى التي أرادها الله أن يستيقن من وجودها من خلال توجيه فكره وسمعه وبصره للتجول في أرجاء الكون الفسيح، هي التي ستفتح له أبواب العلم الواسعة ، وتمكنه من استنباط القوانين التي تتحكم في حركة الحياة واستيعابها وتمثلها ، ومن ثم تسخيرها واستغلالها في عمارة الأرض ، وبناء الحضارة الإنسانية فالعقل المسلم >> عقل ينصرف إلى عالم الشهادة وشؤون الحياة والكائنات

<sup>18</sup> ( فاطر - 9 .

<sup>19</sup> ( الحجر - 22 .

يسعى إلى تسخيرها وتنظيمها ، و رعايتها ، و إصلاح شأنها على أساس من المعرفة الموضوعية بأحوالها ووقائعها وطباعها و ما أودع الله فيها من سنن و نواميس تحقيقا لمعنى الخلافة وفق توجيه الوحي ، و أوامر الحق ، و مقاصد الشريعة وأحكامها المنزلة << (20).

## 2 - طلب السير في الأرض : وكما وجه القرآن الكريم

الإنسان إلى النظر في الكون ليتحقق من انتفاء الفوضى عنه ، ويتحرر من فكرة المصادفة العمياء فيكون على بصيرة من أمره في تعامله مع محيطه الطبيعي والاجتماعي .

كذلك دعاه إلى السير في الأرض لمعرفة أحوال السابقين ، وإمارة اللثام عن سير الحضارات الإنسانية ، والتقيب عن أسباب ازدهارها وعلل انحطاطها وسقوطها ، والبحث عن توجهاتها العقيدية والفكرية وممارساتها السياسية والاقتصادية ، والنظر في شبكة علاقاتها الاجتماعية وتسجيل ما طرأ على مسيرتها من تحولات إيجابية دفعتها إلى الأمام نحو الرقي والازدهار ، أو نكسات جعلتها تتقهقر مرتدة إلى الخلف . قال

( 20 ) أزمة العقل المسلم ، عبد الحميد أبو سليمان ، ص 115 .



تعالى ﴿أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة ، وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسالهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾<sup>(1)</sup> وقوله تعالى أيضا ﴿قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ ( آل عمران 137 ) .

وهذا الميدان الإنساني الذي فتحه القرآن على مصراعيه أمام المسلمين هو ما يمكن أن نطلق عليه بالعلوم الاجتماعية والإنسانية وقد كان لهذه الدعوة القرآنية أثرها العظيم في توجيه أتباعه نحو هذا الفرع المهم من العلوم يقول العلامة الجزائري محمد البشير الإبراهيمي موضحا طبيعة هذه الدعوة القرآنية قائلا : >> كان هذا الإرشاد القرآني المتكرر حفزا إلى التقيب عن آثار المدنيات القديمة ، ودراساتها والاطلاع على الصالح النافع منها ، والأخذ به ، وكان من آثار هذا التنبه القرآني أن تفتحت أذهان المسلمين إلى دراسة هذه المدنيات ، واقتباس النافع منها . وكان من فضل القرآن على العالم أنه أبقى بهذا

<sup>(1)</sup> الروم - 9 .

الإرشاد على علوم كادت تدرس ، و على آثار مدييات كادت تنطمس  
<< (22).

وفي هذا المضمار يندرج القصص القرآني الذي يحدثنا عن حياة الأمم  
البائدة والمجتمعات السالفة التي بلغت شأوا بعيدا من اتساع العمران وقوة  
السلطان : مثل قوم عاد وقوم صالح ، وقوم هود ، وقوم لوط ، وقوم فرعون  
وسكان سبأ ، ثم يصور لنا ما آلت إليه من سوء المصير عندما أذاقها الله لباس  
الخوف والجوع ، أو دمر عليها بعد الحياة الرغدة الآمنة ، و البسط في  
النعمة ، و مذيلا كل قصة بالتأكيد على أن التغيير  
الذي طرأ على هذه المجتمعات البشرية - سواء أكان  
إيجابيا أو سلبيا ، لم يكن اعتباطيا أو عفويا ، بل إن له أسبابا معينة تتكرر في  
كل مرة ، وتحدد مصير المجتمع البشري في قوته وضعفه ووجوده وفنائه ﴿  
لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾ (23).

من هنا ، كانت دعوة القرآن إلى مسح التاريخ البشري  
واستعراض حوادثه ، لا تدخل في باب التسليية ، أو  
إرضاء رغبة الإنسان في تجميع أخبار الأمم السالفة

(22) آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي - ج 1 - ص 260 .

(23) يوسف - 111 .

للاستمتاع بما تحمل من مفاجآت وحوادث غريبة ، وإنما لتكون ميدانا خصبا للدراسة والاختبار ، والبحث و الاستقراء والاستنتاج الذي يقود إلى الوقوف على السنن و النواميس التي تخضع لها الحركة التاريخية في سيرها وتطورها ، وانتقالها من حال إلى حال بالنظر الدقيق في المقدمات والأسباب التي أنتجت الأحداث ، ومقارنتها بالمصائر التي آلت إليها الأمم والشعوب .

و لولا هذا الهدف البعيد لما كان للدعوة القرآنية إلى السير في الأرض أي معنى .

فقد أكدت الآيات القرآنية أن المسيرة الطويلة التي قطعتها البشرية على امتداد تاريخها لا تتحرك في فوضى ، وإنما هي خاضعة - مثلها في ذلك مثل عالم الحياة والأشياء - لقوانين معينة تحكمها ، وتتحكم في حركة التاريخ والاجتماع البشري والدورات الحضارية ، وهي لا تتخلف ولا تحابي أحدا ﴿ سنة الله في الدين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا ﴾ (24) ، ﴿ فهل ينظرون إلا

---

24 ( الاحزاب - 2 .

سنة الأولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا ﴿<sup>25</sup>﴾ ،  
﴿ سنة من قد أرسلنا من قبلك من رسلنا ولن تجد لسنةنا تحويلا ﴾<sup>(26)</sup> .

والقرآن إذ يؤكد هذه الحقيقة ، فإنما يستند إلى وحدة التركيبة البشرية من حيث الفطرة ، والغرائز ، والفكر ، والعواطف ، والوجدان ، وطبيعة العلاقات التي تربط الإنسان ببني جنسه وبع محيطه ، وهي الثوابت الإنسانية التي تتجاوز في اتساعها وشموليتها كل الفوارق الجنسية والزمنية ، والجغرافية ، والبيئية<sup>(27)</sup> ، وكل التطورات المادية التي شهدتها تاريخ الإنسان .

وهو إذ يدفع الإنسان إلى معرفة هذه السنن و القوانين ، إنما يحثه على استغلالها في حركته الحضارية ليتمكن من تجاوز مواقع الخطأ التي تسببت في تدمير الأمم السابقة وخراب عمرانها وليكتسب بذلك فقها حضاريا في إطار علوم الإنسان والقوانين الاجتماعية التي تحكم مسيرة الحياة والأحياء

<sup>25</sup> ( فاطر - 43 .

<sup>26</sup> ( الاسراء - 77 .

<sup>27</sup> ( حول إعادة تشكيل العقل المسلم ، د. عماد الدين خليل ، ص 52 .

يصحح - على هديه - سير حاضره ، ويرسم خطوط مستقبله قال تعالى ﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداؤها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين وليلمح الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين﴾ (28).

لقد كان هدف القرآن الكريم من حث الإنسان على القيام بهذه العمليات العقلية المختلفة الموجهة إلى النظر في الكون ، والسير في الأرض هو تكوين عقل مرتب متوازن وتدريبه على الرؤية الشمولية الكاملة التي تربط الأسباب بالمسببات ، والتائج بالمقدمات وإعطائه القدرة على التمييز بين آثار المشكلات وعللها ، وتشجيع الميول العقلية كالميل إلى البحث والاطلاع ، والتقيب والابتكار ، والإبداع ، وإيجاد التفكير المنطقي السليم وتأسيس العقيدة على أساس الحجة القوية ، والدليل الصحيح ، واعتماد النزعة العقلية في معرفة حقائق الدين ، ورفض الجمود والتقليد ، وتنمية الحس الاستدلالي ، والروح الاستقلالية . وهذه

( 28 ) آل عمران - 137،138،139،140،141 .

الخطوات العملية مقدمات ضرورية للوصول إلى العلم الصحيح الذي يفضي إلى الإعمار البناء وصنع الحضارة و تحقيق وظيفة الاستخلاف .

## ثانيا : العلم

تنفق جميع الأمم والشعوب في العالم على تمجيد العلم واحترام العلماء وذلك لأن كل ما حققته البشرية من إنجازات حضارية كان نتيجة جهود العلماء وتضحياتهم في سبيل تطوير الحياة الإنسانية . وما من خطوة قطعتها البشرية عبر تاريخها الطويل نحو الرقي والازدهار إلا وكان للعلم والعلماء فيها حضور قوي . فالعلم هو النبراس الذي أضاء للإنسان - عبر العصور - طريقه فاهتدى بواسطته إلى خبايا الكون ، وكشف أسرار الطبيعة ، وطوع مصادر الثروة في الأرض ، وخرج من طور البداوة وارتقى في مدارج الحضارة ، وكلما ازداد علما ومعرفة ، فتحت له أبواب جديدة ، وظهرت أمامه آفاق واسعة للتطور والازدهار اللذين يوفران له مزيدا من الراحة والرفاهية ، والسيطرة على مظاهر الطبيعة المختلفة ، وتكييفها لتناسب مع متطلباته واحتياجاته . ولا نبالغ إذا قلنا أن العلم هو الذي مكن الإنسان من امتلاك مقاليد الكون ، والتربع على عرشه كسيد مطلق له دون منازع .

فالعلم - إذن - هو الشرط الأساسي لبناء أي حضارة . لذلك حظي  
بمكانة مرموقة عند جميع الأمم والشعوب ، و أشادت به كل الكتب  
والأديان السماوية .

ونعني بالعلم ، ذلك النشاط الإنساني العقلي الذي ينتج من قدرة  
الإنسان على إيجاد العلاقات بين الصور الحسية المتراكمة التي تتلقاها  
حواسه من العالم المرئي ، وتحفظ بها ذاكرته ، ومن ممارسته لمختلف  
العمليات العقلية كالملاحظة والاستقراء ، والمقارنة والتجربة ، وما إليها  
ومن قدرته أيضا على استيعاب وفهم ما يتلقاه من معلومات من  
عقول الآخرين .

وقد كان العلم قديما واحدا ، يمثل مجموع ما توصلت إليه الإنسانية  
عبر تاريخها من معلومات وما اكتسبته من خبرات في مختلف مجالات الحياة  
 . ومع تطور مسيرة الإنسان وانفتاح عقله على معارف جديدة اتسع  
مجال العلم فشمّل عدة ميادين كالطب والفلك ، والرياضيات وغيرها ،  
لكنها ظلت جميعا خاضعة للفلسفة التي كانت محورا وقاعدة للعلوم  
كلها<sup>(29)</sup> .

---

<sup>29</sup> ( الفكر الإسلامي بين الأصالة والتجديد - زكي الميلاد - ص 254 .

ثم تطلب التراكم الكمي والنوعي للمعرفة الإنسانية وتشعبها  
انفصال العلوم عن الفلسفة ، وخضعت للتقسيم الحديث الذي يضم  
قسمين رئيسيين :

**أ - العلوم الطبيعية :** ومحورها المادة والطبيعة ، وأداتها  
الرياضيات ، وتنقسم بدورها إلى قسمين: علوم تجريبية ، وعلوم تطبيقية .  
تقوم الأولى على طريقة الملاحظة والتجربة ، وإخضاع المادة للقياس والاختبار  
والافتراضات الممكنة إثباتها، وهدفها معرفة خصائص الأشياء ، والوصول إلى  
القوانين والعلاقات والأسباب التي تحكم عالم المادة . أما العلوم التطبيقية فهي  
التي تتولى تطبيق الاكتشافات العلمية على الواقع للتوصل إلى عدة أهداف :  
كالرخاء الاقتصادي ، والتقدم الصحي ، والتفوق العسكري ، وتسهيل  
وسائل المواصلات والاتصالات وما إليها . وعليه ، فإن غاية  
العلم التجريبي و التطبيقية معا هو السيطرة على البيئة المادية  
لخدمة الإنسان<sup>(30)</sup>.

**ب - العلوم الإنسانية والاجتماعية :** ومحورها الإنسان وما  
يتلقاه من تأثيرات من مجتمعه وبيئته ، سواء أكانت تربوية أو ثقافية أو

---

<sup>30</sup> ( الأسس الإسلامية للعلم ، د.محمد معين صديقي - ص 13، 14 .



اجتماعية أو تاريخية ، أو سياسية ، و ما يحدثه هو من تأثير في محيطه الاجتماعي .

ويقوم هذا التقسيم على أساس اختلاف المنهج المتبع في التعامل مع كلا القسمين وليس على أساس أفضلية أو أولوية واحد على الآخر - إذ أن العلوم جميعا ضرورية للإنسان ، وهي وسيلته إلى تطوير حياته وصنع حضارته (31) .

ويخضع هذا التقسيم أيضا للرؤية الغريبة المستندة إلى الفلسفات المادية ، القائمة على علم الإيمان بما هو خارج عن الحس والعقل ، وهي تلغي الغيب والغيبيات من دائرة العلوم وتنفي عنها تماما صفة العلمية .

أما العلم في الخطاب القرآني فيحتل مكانة متميزة ، حيث نبه القرآن إلى عظمة هذه النعمة الكبرى التي خص بها الإنسان ، ودعاه في مواضع عديدة إلى الإقبال على طلبه ، لكونه السبيل الأقوم الذي يضمن للإنسان سعادة الدنيا والآخرة . ولعل أبرز ما يصادفنا - ونحن نتحدث عن قيمة العلم في القرآن - أن أول كلمة نزلت من القرآن الكريم على رسول الله صلى الله عليه

---

<sup>31</sup> ( الأسس الإسلامية للعلم . أ. د. محمد معين صديقي . ص 15 - 16 )

وسلم هي كلمة ﴿ إقرأ ﴾ في قوله تعالى ﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق  
خلق الإنسان من علق إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان  
ما لم يعلم ﴾<sup>(32)</sup>.

ففي هذه الآية أمر بالقراءة مرتين ، وذكر العلم ثلاث  
مرات، مما يدل على أن تحصيل العلم شرط ضروري لتأسيس الحياة ،  
سواء من الناحية الروحية ، أو من الناحية المادية ، ولذلك احتوت الآية  
على الأمر بالمعرفة الالهية ، والمعرفة العقلية ، والمعرفة النظرية والمعرفة  
الكونية<sup>(33)</sup>.

والحواجز القرآنية التي تدفع المسلمين إلى السبق العلمي كثيرة جدا  
وصريحة في دلالاتها ، وهي لا تأخذ نمطا واحدا ، وإنما تسلك في الدعوة  
إلى العلم مسالك متنوعة .

ومن ذلك تأكيده سبحانه وتعالى على علو منزلة العالم، وظهور فضله  
على غيره ففي منطق القرآن لا يستوي عالم وجاهل ﴿ قل هل يستوي  
الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولو الألباب ﴾<sup>(34)</sup>.

---

<sup>32</sup> ( العلق - 1،2،3،4 .

<sup>33</sup> ( هذا القرآن ، فأين منه المسلمون ؟ - محمد زكي الدين - ص 301.

<sup>34</sup> ( الزمر - 9 .

وإنما ينال الإنسان درجات الكرامة عند الله بمقدار ما يصيب من العلم ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات والله بما تعملون خبير﴾ (35).

كما أقسم الله تعالى بأدوات العلم كالقلم والكتاب المسطور فقال ﴿ن والقلم وما يسطرون﴾ (36)، وقال عز وجل ﴿والطور وكتاب مسطور في رق منشور﴾ (37) والقسم بالأشياء في القرآن الكريم يأتي تنويها بشأنها، ولفتا لأنظار الناس إليها وتأكيدا لقيمتها المتميزة. وفي هذا السياق أيضا يشير القرآن إلى أن العلم هو الذي جعل الإنسان يرتفع إلى مصاف الملائكة في الشهادة بوحداية الله ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط﴾ (38).

وأكد في موضع آخر أن القدرة على التفكير في بديع مخلوقات الله وتأملها، ومحاولة اكتشاف أسرارها، والبحث في كنهها، وأخذ العبرة من كل ذلك للاعتراف بعظمة الخالق، وقدرته المبدعة، هو من نصيب

---

35 (المجادلة - 11 .

36 (القلم - 1 .

37 (الطور - 1، 2، 3 .

38 (آل عمران - 18 .

العلماء الذين نالوا حظا وافرا من العلم الذي رفعهم إلى هذه الدرجة  
فالإيمان الحقيقي لا يأتي إلا مع العلم ﴿ إنما يخشى الله من  
عباده العلماء ﴾ (39).

وبه القرآن الإنسان كذلك إلى أن العلم لا حدود له ، فلا  
يجب أن يقف في طلبه عند حد معين ﴿ وقل رب زدني علما ﴾ (40) وأنه  
مهما حاز من معارف فلن يكون ذلك إلا نقطة من بحر علم الله تعالى  
الذي لا ساحل له ﴿ وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ (41) ، وفي هذا  
تشجيع له ليظل سائرا في طريق العلم لا يفتز عن طلبه ولا يشبع منه  
وتحذير من الاغترار بما وصل إليه ف : ﴿ فوق كل ذي علم عليم ﴾ (42)  
والقرآن كله موجه - في عمومته وتفصيله - للذين يعلمون  
وللذين يعقلون .

كما ورد في أحاديث كثيرة إشادة بالعلم والعلماء  
ومنها تفضيل العلماء العاملين على المنقطعين للعبادة مثل قوله عليه الصلاة

---

39 ( فاطر - 28 .

40 ( طه - 114 .

41 ( الاسراء - 85 .

42 ( يوسف - 76 .

و السلام : ( فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي ) (43) ، « فانظر كيف جعل العلم مقارنا لدرجة النبوة وكيف حط رتبة العمل المجرد من العلم » (44) ، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم ( العلم فريضة على كل مسلم ) (45) ، وفي هذا دعوة صريحة ترتفع إلى درجة الفرض للاقبال على طلب العلم لأنه مفتاح فهم حقائق الدين وسبيل فقه أسراره ، وأمثلة وسيلة لمعرفة الحياة والإمام بخبايا الكون ، والسعي فيها ببصيرة .

وقد جعل القرآن الكريم العلم هو علامة استخلاف آدم في الأرض وفي هذا إيحاء شديد إلى أن العلم شرط ضروري لحدوث العمارة في الأرض وتحقيق أمانة الاستخلاف فهو أداة الإنسان الأساسية التي تمكنه من الحركة في أرجاء الكون ، وبغيره لا يستطيع أن يتحمل أعباء الاستخلاف ، لذلك زوده الله بالعقل ، و علمه الاسماء منذ فجر

---

43 ( أخرجه الترمذي عن أبي أمامة وقال حديث غريب - وصححه الألباني .

44 ( إحياء علوم الدين - أبو حامد الغزالي - ج 1 - ص 6 .

45 ( أخرجه ابن عدي والبيهقي في شعب الايمان عن أنس والطبراني في المعجم الكبير عن ابن مسعود والخطيب في تاريخ بغداد عن علي وصححه الألباني .

ميلاده فقال تعالى ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، قالوا سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم . قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إني أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ﴾ (46) ، وبذلك تبوأ آدم المنزلة العليا في الكون وبعلمه صار مسجودا له وصارت الملائكة ساجدة .

وهذا يدل على أن الإنسان لم يبدأ حياته في الأرض من فراغ ، كما تزعم بعض النظريات المادية التي تقول أن الإنسان كان يعيش في فجر التاريخ مثل الحيوانات ، ثم ارتقى فاجتمع بيني جنسه ، وبدأ عقله يتطور شيئا فشيئا حتى أصبح أفضل الكائنات . بل إن القرآن يؤكد - كما أسلفنا - أن الله سبحانه وتعالى زود الإنسان منذ أول يوم بالقدرة العلمية التي تمكنه من القيام بواجبات الاستخلاف وعمارة الأرض وكانت بدايات المعرفة الإنسانية تتمثل في (الأسماء) التي علمها لآدم .

وقد اختلف العلماء في تفسير الأسماء التي تلقاها آدم من ربه ، فقال الراغب الاصفهاني : إنها الحروف والأفعال

---

<sup>46</sup> ( البقرة - 31،32،33 .

والأسماء (47) ، وقال الطبري : >> إنها أسماء ذريته وأسماء الملائكة دون سائر أجناس الخلق << (48) ، وقال الزمخشري : أن المراد بالأسماء >> الأجناس التي خلقها ، وعلمه أن هذا اسمه فرس ، وهذا اسمه بعير ، وهذا اسمه كذا وكذا ، وعلمه أحوالها أو ما يتعلق بها من المنافع الدينية و الدنيوية << (49).

وقال آخرون إنها اللغات ، وأنها لا تقتصر على لغة واحدة كان يتحدث بها آدم وإنما هي كل اللغات التي جرى بها لسان بني آدم منذ القديم إلى الآن . وذهب بعضهم إلى أنها اسم كل شيء كالبعير و البقرة و الشاة و القصعة ، وأضاف بعضهم اسم الجن والوحش (50).

أما ابن كثير فقد قال في تفسير الأسماء : >> والصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها ذواتها وصفاتها وأفعالها << (51) ، وقال اليبضاوي : >>

---

47 ( معجم مفردات ألفاظ القرآن - الراغب الاصفهاني - ص 250 .

48 ( تفسير الطبري - ج 1 - ص 171 .

49 ( الكشاف - الزمخشري - ج 1 - ص 272 .

50 ( القرآن وقضايا الإنسان - د. عائشة عبد الرحمن - ص 45 .

51 ( تفسير ابن كثير - اختصار وتحقيق : محمد علي الصابوني ، ج 1 ،

ص 51 .

المعنى أنه تعالى خلق آدم من أجزاء مختلفة ، وقوى متباينة مستعدا لإدراك أنواع المدركات من المعقولات والمحسوسات والمتخيلات والموهومات وأهمه معرفة ذوات الأشياء وخواصها ، وأسمائها ، وأصول العلوم وقوانين الصناعات وكيفية آلتها» (52) .

وجاء في تفسير الطبرسي >> ﴿وعلم آدم الأسماء كلها﴾ أي علمه معاني الأسماء ، إذ الأسماء بلا معاني لا فائدة فيها ، ولا وجه لإشارة الفضيلة بها ... وقيل إنه سبحانه وتعالى علمه جميع الأسماء والصناعات ، وعمارة الأرض والأطعمة والأدوية واستخراج المعادن وغرس الأشجار ومنافعها ، وجميع ما يتعلق بعمارة الدين والدنيا» (53) .

ومعظم هذه التفاسير تجمع على أن هذه الأسماء هي نوع من >> العلم الكلي بطبيعة العالم الذي سيحيا فيه آدم وذريته من بعده ، أو هي فكرة مجملة عن العالم لكي يتمكن آدم وذريته من فهمه والتعامل معه تعاملًا إيجابيًا» (54) ، كما تعني أيضا : ما تهيأ في فطرة الإنسان من استعداد لاكتساب العلم ومعرفة الأشياء

52 ( أنوار التنزيل وأسرار التأويل - البيضاوي - ص 24 .

53 ( مجمع البيان في تفسير القرآن - الطبرسي - ج 1 - ص 96 .

54 ( أزممتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق ، د. أحمد محمد

كنعان ، ص 30، 31 .



بالبحث والاستدلال (55) ، وتتضمن كذلك القدرة على التعلم واكتساب المعرفة ، وامتلاك القابلية لاستيعاب جميع العلوم التي قدر الله سبحانه أن الإنسان سيحتاجها في هذه الأرض إلى قيام الساعة .

وقد أثبتت الحفريات والأبحاث الأثروبولوجية أن الدين هو الذي أعطى البشرية تلك الحصيلة الضخمة من الفكر والعلم والمفاهيم والقيم التي ما تزال تتداولها حتى الآن وهو الذي زودها بمعاني العدل والظلم والحق والخير ، والشر ، والفاني والخالد ، وهي المعاني التي لا تزال تحفظ حتى الآن بمفهومها الأول ، ولا نتجاوز الحق إذا قلنا أن ما أشارت إليه العلوم والدراسات الحديثة هو في حد ذاته العلم الذي تلقاه آدم عن ربه ، ونقله إلى ذريته التي توارثته منذ فجر التاريخ إلى يومنا هذا .

ومن جملة ما توحى به الآية الكريمة أيضا - بالإضافة إلى ما أسلفنا - أن عدم معرفة الملائكة بالأسماء التي طلب منهم الله عز وجل إنباءه بها - وهم المسبحون المقدسون - يبعد هذا العلم عن المعرفة الدينية المتعلقة بالعبودية لله عز وجل ، وهذا يستبعد أيضا أن تكون الأسماء هي أسماء الله الحسنى - كما ذهب إلى ذلك بعض المفسرين - إذ لو كان الأمر كذلك لكان هذا العلم محصورا في مجال المعرفة الدينية . أضف إلى ذلك

55 ( تفسير المنار - ص 262، 263 .

أن انتهاء تعجب الملائكة من استخلاف آدم في الأرض بعد أن أنبأهم بالأسماء التي علمها الله له (56) ، يدل على أن هذا العلم مرتبط بالأرض التي سوف يحيا عليها ، وليس من اختصاص الملائكة المخلوقين للتسبيح والتعظيم ، مما يستلزم تعلقه بالوظيفة التعميرية وليس التعبدية .

وتدل كلمة (كلها) في قوله تعالى ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾ على أن آدم - كما ذهب إلى ذلك بعض العلماء - قد تلقى أسماء كل الحيوانات ، والنباتات والجمادات الطبيعية ، والمصنوعات والمخترعات بما في ذلك خصائص هذه الأشياء وعناصرها وسائر صفاتها والتي سيستعملها الإنسان في حياته الدنيا منذ خلق آدم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهذا ما يوحي به لفظ (كلها) الذي يقتضي الشمول . وعليه فإن آدم قد سكن الأرض وهو مزود بجميع أنواع المعرفة لتسهيل حياته وتيسير سبيل قيامه بواجبات الاستخلاف ، وتحقيق العبودية لله عز وجل وبذلك كان العلم من أساسيات الحياة الإنسانية منذ اللحظة الأولى لهذا الوجود .

56 ( استخلاف الإنسان في الأرض - د. فاروق أحمد دسوقي - ص 8 .

والعلم الذي يشيد به القرآن ويدعو إليه ، ليس محصورا في العلم الديني الذي يهتم بأمور العبادة ، كما يظن بعض الناس ، وكما شاع بين المسلمين في عصور الانحطاط بل يستوعب العلم كله بمفهومه الواسع والشامل الذي ينظم كافة شؤون الحياة الإنسانية في جميع مجالاتها ، وهو بذلك يلفت أنظار المسلمين إلى كل أنواع المعارف والعلوم التي ينتجها العقل الإنساني وينوه بها وبفائدتها . من هنا اكتسى العلم في القرآن أبعادا ثلاثة تتمثل في : علم الغيب ، وعلم الشهادة ، و علم السير في الأرض .

**فعلم الغيب :** هو العلم الذي تلقاه الإنسان عن الله بواسطة الأنبياء والرسل والكتب السماوية ومنه علم ما هو غائب عن حواسه ، ولا يستطيع عقله إدراكه أو تمثيله ، لأنه يختلف اختلافا كبيرا عن عالم المادة الذي بإمكانه تطويعه وتحليله ودراسته ويشمل بشكل أساسي وجود الله عز وجل وملائكته ، وجنته ، وناره ، وما إليها . وهذا العلم يكتفي الإنسان أمامه بالإيمان والتسليم لصدوره عن خالق الكون ولعدم خضوعه للعقل والحواس ، ولعجز الإنسان التام عن إدراكه لحكمة يعلمها الله قال تعالى ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى

من رسول ﴿٥٧﴾ ، وقال عز وجل ﴿وما كان الله ليطلعكم على الغيب ، ولكن يجتبي من رسله من يشاء﴾ ﴿٥٨﴾ .

من هنا استنتج العلماء أن عالم الغيب مستثنى من النظر الفكري لأنه فوق طاقة الإنسان وعقله وفي ذلك يقول الشاطبي >> ومعلوم أنه لم يأمرهم بالنظر فيما حجب عنهم ، ولم يكن لهم الاطلاع عليه - عادة - إلا بخارقة ، فإنه إحالة على ما يندر التوصل إليه >> ﴿٥٩﴾ .

أما علم عالم الشهادة : فهو يشمل العلوم الطبيعية التي أشرنا إليها آنفا ، وهو ميدان واسع فتحه القرآن على مصراعيه أمام الإنسان ليتحرك فيه بحرية لأنه مزود بالمؤهلات التي تمكنه من اقتحامه واستيعابه وتسخيره ، وهو يشمل الكون كله بجميع محتوياته المادية ، وبتذليله يستطيع الإنسان أن يحقق مهمة الاستخلاف في الأرض .

وأما علم السير في الأرض : فهو الذي يرادف مصطلح العلوم الإنسانية والاجتماعية ، وهو يقوم على دراسة حركة الإنسان عبر

٥٧ ( الجن - 26 .

٥٨ ( آل عمران - 173 .

٥٩ ( الموافقات - الشاطبي - ج 1 - ص 283 .

التاريخ من خلال ممارسته لمهنته التعميرية في الحياة ، ومدى استجابته لأمر الله أثناء إنجاز هذه المهمة ، وتقييم تجاربه المختلفة في هذا الميدان واستخلاص العبر والدروس من المواقع التي أخطأ فيها والمحطات التي وفق فيها ، والعكوف على دراسة عوامل نشوء الحضارات الإنسانية وأسباب سقوطها ، وظروف تكون الأمم وانحلالها ، ورقبها وانحطاطها ، وعمرانها وخرابها ، ليستفيد اللاحق من السابق ، ويتعلم الآتي من الماضي ويتكون لدى الإنسان رصيد من الفقه الحضاري الذي يؤمن له سيره نحو المستقبل .

إن الآيات القرآنية الكثيرة التي تناولت موضوع العلم وتجاوزت 750 آية ، قد استطاعت أن تخلق في المجتمع الإسلامي مناخا علميا هزّ عقل الإنسان وفجر طاقاته وخلق فيه خاصية التشوق المعرفي لكل ما يحيط به من مظاهر ووقائع وأشياء ، ودفعه إلى البحث والتساؤل والجدل ، وبتّ فيه القلق والحركة ، فاندفع العقل المسلم إلى شتى مجالات العلوم والمعارف ، يأخذ منها ، ويضع لها قواعد البحث العلمي ، ويرتقي بها مهتديا بما جاء في كتاب الله من توجيهات، وأثّرت هذه الحركة العلمية الواسعة تراثا زاخرا في شتى المجالات كعلوم القرآن ، وعلوم الحديث ، وعلم أصول الفقه ، وعلوم التاريخ والجغرافيا ، والطب والرياضيات ، والكيمياء ، والفلك

والبصريات ، والنبات ، وغيرها : و إن أعظم النتائج العلمية - لمدة أربعة قرون - كانت صادرة عن العبقرية الإسلامية (60) ، كما يؤكد ذلك "جورج سارتون" في كتابه " تاريخ العلم " .

ويجمع كثير من الباحثين على أن أكبر ما يفخر به العقل المسلم في عصر ازدهاره هو وضعه لأصول المنهج التجريبي القائم على الملاحظة والمقارنة ووضع الفروض وإجراء التجارب للتحقق من صحتها . وبعتمادهم على التجربة كمنهج أساسي في المعرفة فتحوا للإنسانية مجالاً عظيماً لاقتحام الكون وفك رموزه وألغازه .

وكان القرآن الكريم هو الذي وضع للمسلمين قواعد المنهج الحسي التجريبي ونظمه عندما دعاهم - في محكم آياته - إلى توظيف الحواس في مجال البحث والنظر والتأمل والمعرفة للوصول إلى الحق ، وبذلك وجه أسماعهم وأبصارهم وعقولهم إلى كل ما يدور حولهم في الكون من كواكب ، وحيوان ونبات ، وجماد وحتى إلى أنفسهم ﴿ فلينظر الإنسان مم خلق ﴾ (61) ودفعتهم إلى

---

60 ( مجلة منار الإسلام .الدين في عصر العلم .القرضاوي ، ع2 ، س 3 ، فيفري 1978 ، ص 27 .

61 ( الطارق - 5 .

فرز ما يرون ويسمعون ، وتمحيص ما يتلقون ليصلوا إلى النتائج الصحيحة القائمة على البرهان العلمي ، والحجة العقلية .

وقد اعترف مجموعة من المؤرخين الغربيين - في إعجاب ودهشة - بالتفوق العلمي للمسلمين الأوائل ، وشهدوا بنبوغهم في كافة ميادين العلم ، وقيادتهم لأكبر حركة علمية عرفها التاريخ ، ولم يستطيعوا إنكار فضل العلماء المسلمين ، و دور الجامعات الإسلامية العظيمة في بعث النهضة الأوروبية الحديثة التي تعد امتدادا للحضارة الإسلامية التي وصلتهم تأثيراتها المباشرة عن طريق الأندلس وصقلية ، وسنكتفي هنا بشهادة "غوستاف لوبون" الذي قال : >> كلما أمعنا في درس حضارة العرب وكتبهم العلمية ، واختراعاتهم وفنونهم ظهرت لنا حقائق جديدة وآفاق واسعة ، ولسرعان ما رأينا أن العرب أصحاب الفضل في معرفة القرون الوسطى لعلوم الأقدمين ، وأن جامعات الغرب لم تعرف لها - مدة خمسة قرون - موردا علميا سوى مؤلفاتهم وأنهم الذين مدنوا أوروبا مادة وعقلا وأخلاقا ، وتأثير العرب عظيم في الغرب وهو في الشرق أشد وأقوى ... << (62).

62 ( حضارة العرب - غوستاف لوبون - ترجمة : عادل زعيتر - ص 26

وأضاف قائلاً : >> الحق أن القرون الوسطى لم تعرف كتب العالم اليوناني القديم إلا من ترجمتها إلى لغة أتباع محمد ، وبفضل هذه التجربة اطلعنا على محتويات كتب اليونان التي ضاع أصلها ... وأنه إذا كانت هناك أمة نقر بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعرب هم تلك الأمة ، لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان ، فعلى العالم أن يعترف للعرب بجميل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة اعترافاً أبدياً ... >> (63).

غير أن هذا العطاء العلمي والابداع الحضاري لم يستمر طويلاً في تاريخ الأمة الإسلامية بسبب انحراف المسلمين عن قيم دينهم ، وعدم تمثلهم لتوجيهات الوحي ، وجهود الحركة العقلية ، والتوقف عن السير في الأرض مما كلف الأمة الإسلامية الكثير من المصائب والهزائم التاريخية التي أدت إلى ضعفها وتهميشها ، وتقهرها عن الشهود الحضاري وافقارها لأبسط مستلزمات الاستخلاف و عمارة الأرض .

ويمكن تتبع مسيرة العلم في تاريخ الأمة الإسلامية عبر المراحل  
الثلاث التالية :

---

<sup>63</sup> (المرجع نفسه - ص 568 .



1- مرحلة الابداع والعطاء الحضاري : وهي المرحلة التي التزم المسلمون فيها بتعاليم دينهم وتمثلوا روح القرآن ، وتجاوبوا مع دعوته إلى العلم ، واستجابوا لنداءاته المتكررة لدراسة الكون وتسخير ه ، والسير في الأرض لاكتشاف سنن السقوط والنهوض للمجتمعات البشرية فانطلقوا في أرجاء العالم يستوعبون علوم الحضارات السابقة ، وينون عليها علوما جديدة ، فأحدثوا بذلك حركة علمية واسعة وثرية تركت آثارها العظيمة في الحضارة الإنسانية .

وهذه هي المرحلة التي تحققت فيها شروط عمارة الأرض كما يريدنا القرآن الكريم وهي إحداث الانسجام المطلوب بين قيم الوحي ومبادئ البحث العلمي >> ذلك ان عمارة الأرض بفقها قوانين التسخير وصلاح البشر بهداية الوحي أمران لازمان لتحقيقها ، ولا يمكن بأي حال من الأحوال أن تتحقق بفقد أحد هذين الأمرين >> (64).

ولعل أهم ما يلفت النظر في هذه الحركة العلمية أن المسلمين قد تمكنوا - بفقهم العميق لتوجيهات القرآن في مجال البحث والدراسة - أن يمسكوا بطرفي المعادلة ، فكان تقدمهم في

---

<sup>64</sup> ( تأملات في الواقع الإسلامي - عمر عبيد حسنة - ص 81 .

العلوم الشرعية والإنسانية موازيا تماما لإبداعهم في مجال علوم الكون فلم يقع لهم الاختلال بين الايمان وال عمران ، فالاكتشافات العلمية المختلفة كقياس محيط الأرض ، والتقدم في علم الطب والرياضيات ، والكيمياء وغيرها ترافق مع النبوغ والإبداع في العلوم الشرعية (65) .

2- مرحلة الخلل والانحراف : وهي المرحلة التي انحسر فيها

المفهوم القرآني الشامل للعلم ، فضعف التفكير العلمي وتوقف المسلمون عن السير في الأرض و أعرضوا إعراضا يكاد يكون تاما عن علوم الكون والطبيعة ، وركدت الحركة الفقهية وتوقفت حركة الاجتهاد ، وعمت الأمية (66) ، وخضع العلم إلى تقسيمات غريبة عن المنطق الإسلامي : فمنها ما هو أعلى وما هو أسفل ومنها ما هو محمود وما هو مذموم ومنها ما هو دنيوي وما هو أخروي ومنها ما هو فرض وما هو مستحب (67) .

---

65 ( قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر - د. زغلول راغب النجار - ص 15 .

66 ( المجتمع الإسلامي المعاصر ، محمد المبارك ، ص 53 وما بعدها .

67 ( إحياء علوم الدين ، أبو حامد الغزالي ، ص 13 وما بعدها .

وتميزت هذه المرحلة بالنزوع نحو علوم الآخرة ، والاقبال عليها وتمجيدها والاهتمام الزائد بها ، واعتبارها العلم الحقيقي ، ودم علوم الدنيا والتزهيد فيها ، مما مهد لظهور الخرافات والأساطير ، وسيادة العقلية العجائبية وميل الناس إلى ذكر الخوارق والكرامات ، وأصبحوا يخوضون :>> في الروح والملائكة والجن وما بعد الموت ويتوسعون في الحديث عن الجنة والنار حتى ليكادون يضعون لهما خرائط مجسمة >> (68) .

وبذلك فقد العقل المسلم القدرة على النظرة الكلية للأشياء وأصبح عاجزا عن ربط الأسباب بالمسببات ، والنتائج بالمقدمات وتمخض عن هذا الواقع المتردي إهمال شنيع للجانب الاجتماعي وتعطيل شبه كامل للأخذ بالأسباب وتوقف تام عن السعي لتطوير مستوى العيش والعمران ، وغفلة عن الإعداد لوسائل القوة والمنعة . وكان من الطبيعي أن يفضي هذا الاختلال في فهم العلاقة الحقيقية بين الدين والدنيا وبين الإيمان والعمران ، إلى التخلف والانحطاط اللذين ولدا الضعف وجرا تكالب الأمم الأجنبية على بلاد المسلمين .

---

(68) آثار محمد البشير الابراهيمي ، ج 4 ، ص 209 .

### 3 - مرحلة المغلوبة الحضارية : وفيها فقد المسلمون كل

مقومات الفعل الحضاري ، وتراجعوا عن المقدمة ، وانسحبوا من الساحة العالمية ، نتيجة تراكم المفاهيم الخاطئة عن الدين ، وتعطيل العقل المسلم عن الابداع الحضاري ، والكشف العلمي ونشأت في المقابل نهضة أوروبية عامة ، تمثلت بشكل خاص في ظهور نهضة فكرية علمية في مجال العلوم الطبيعية والرياضيات ، أفرزت النظريات الحديثة في المادة والطبيعة ونهضة صناعية هائلة إثر الكشف العلمية التي بنيت عليها الاختراعات الحديثة كالكهرباء وقوانينها ، والآلات والمحركات ، وتأسيس الصناعات الكبرى القائمة على أساس علمي سليم .

وهو ما فتح المجال لتطور هائل وسريع من أبرز مظاهره المواصلات السريعة وسرعة حركة البشرية ماديا وفكريا ، وأعقب ذلك تطور اجتماعي هائل في مجال " حقوق الإنسان" <sup>(69)</sup> ، وأساليب الحكم ، وإلغاء العبودية والاستبداد ، والقضاء على الاقطاع والارستقراطية .

حدثت كل هذه التطورات والتغيرات السريعة في أوروبا ، في ظل عداء شديد للكنيسة ، واستبعاد تام للدين من ميدان الحياة ، وكفر بكل ما يمت إلى الغيب بصفة نتيجة الصراع الشديد الذي دار رحاه بين العلماء

<sup>69</sup> ( المجتمع الإسلامي المعاصر ، محمد المبارك ، ص 95،96 .

المتورين ورهبان المسيحية المتشددين والذي تمخض عنه انتقال أوروبا من النقيض إلى النقيض من مرحلة كانت السيادة المطلقة فيها للدين مع رفض العقل ، إلى مرحلة أصبحت فيها السيادة التامة للعقل مع رفض كلي للدين . واستقر في عقول الغربيين أن العلم هو علم المادة وقانونها ، وما عداه ليس من العلم بشيء ، وبذلك شطب الغيب وكل ما يتعلق به من دائرة العلم واتهم أنصاره بالرجعية والتخلف .

وكان الواقع الإسلامي البائس المتخلف مضطرا لأخذ هذا العلم بقواعده ومبادئه وفلسفته والافتناع بمقولاته نظرا للفراغ الرهيب الذي كان يعاني منه في كل المجالات العلمية والإنسانية مصداقا لمقولة ابن خلدون : « المغلوب مولع بتقليد الغالب » ، من هنا ساد في العالم الإسلامي هذا المفهوم المادي الضيق للعلم ، وأصبح أساسا لمناهج التربية في كثير من بلدان المسلمين ، وتمثلته أجيال متعاقبة مما أحدث فجوة عميقة بين علوم الدين وعلوم الدنيا .

غير أن هذا الانفصال النكد الذي حدث بين الأفكار العلمية والقيم الإسلامية لدى الأجيال المسلمة المنهزمة حضاريا لم يمكنها من بلوغ أهدافها في التنمية والبعث الحضاري وبقيت تراوح مكانها بعد أن فقدت الدليل الهادي ، فلاهي التزمت بقيم الوحي الصحيحة ، ولاهي تمكنت

من ناصية العلم المادي ، وبذلك عجزت عن بلوغ مرتبة الابداع التي  
تؤهلها استئناف حركة الاعداد والانجاز الحضاري القوي ، لأنها لم تستطع  
في ظل هذا المفهوم القاصر أن تستوعب حقيقة المادة وأن تعتمد  
مفهوما للعلم تتكامل فيه الأبعاد الأساسية التي بينها القرآن الكريم وتمثلها  
المسلمون الأوائل .

رقع  
عبد الرحمن المجددي  
أسكنه الله الفردوس  
www.moswarat.com

# الفصل السابع

## الوحي منهاج الاستخلاف





يمثل الوحي - بالاضافة إلى العلم في المنظور القرآني - المنهاج  
الضروري لتحقيق وظيفة الاستخلاف في الأرض وبناء الحضارة . فقد  
استطاعت قيم الوحي التي جاء بها القرآن كالتوحيد ، والحرية  
والشورى والمساواة ، والعدل الاجتماعي ، وتكريم الإنسان وتمجيد  
العقل ، والدعوة إلى العلم ، والحث على العمل ، والتسامح ، والرحمة  
والتوازن بين الروح والمادة ، والاحياء الإنساني ، ونبذ العنصرية وغيرها  
أن تحدث انقلابا عجيبا في حياة الناس عندما أعادت تشكيل نفوسهم  
وعقولهم فصاغتها وفق المبادئ الربانية السامية ، وحولتها إلى طاقة  
فعالة قادرة على الفعل الحضاري وصنع التاريخ : >> فالقرآن هو  
الذي رباها وأدبها وزكى منها النفوس وصفى القرائح وأذكى الفطن  
وجلا المواهب ، وأرهمف العزائم ، وهذب الأفكار وأعلى الهمم  
واستفز الشواعر ، واستثار القوى ، وصقل الملكات ، وقوى الإرادات  
ومكن الخير في النفوس ، وغرس الايمان في الأفتدة ، وملا القلوب  
بالرحمة وحفز الأيدي للعمل النافع والأرجل للسعي المشمر ، ثم ساق  
هذه القوى على ما في الأرض من شر وباطل وفساد فطهرها منه  
تطهيرا ، وعمرها بالخير والحق والاصلاح تعميرا >> (1) .

<sup>1</sup> ( آثار محمد البشير الابراهيمي - ج 1 - ص 252، 253 .

إن استيعاب وتجسيد الجيل الإسلامي الأول لهذه القيم وتجاوبه النفسي والعقلي والعملي وتفاعله إيجابيا معها هو الذي مكّنه من الانطلاق في أرجاء الكون ، وفتح له المجال واسعا للاستخلاف ، وبناء حضارة شامخة البنيان لم تعرف الدنيا مثلها في سمر المبادئ ، وتعاون البشر وسيادة العدالة الاجتماعية وانتشار الرخاء الاقتصادي وبذلك تحقق فيهم وعد الله بالتمكين في الأرض والاستخلاف . قال تعالى ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا ﴾ (٢).

وانطلاقا من هذا التقرير الإلهي الذي يجعل وراثته الأرض من نصيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، يؤكد الله سبحانه وتعالى أن التزام الإنسان بقيم الوحي هو المنهاج الضروري لتحقيق الاستخلاف و بناء الحياة على أساس صحيح .

هذه العملية الاستخلافية التي تجمع بين سيادة الإنسان المطلقة على الكون بتحقيق التقدم المادي والعمراني عن طريق تسخير الكون والإمام بمختلف مجالات العلم التي تفتح له على الدوام آفاقا جديدة للتحضر،

<sup>2</sup> ( النور - 55 .

و بين العبودية الكاملة لله عز وجل التي تضمن له الترقى الروحي ، و الأمن النفسي و الطمأنينة ، في ظل قيم الوحي التي تبقى هي الضوابط الموجهة لحركة الإنسان الاستخلافية . و بتكامل سيادة الإنسان على الأرض و تحقيق العبودية لله تنحقق الوظيفة الاستخلافية كما يريدنا القرآن الكريم (٣) .

و بناء على هذا التصور القرآني ، فإن عملية الاستخلاف لا يمكن أن تتم في ظل الوثنية ولا تحت سيطر الاستبداد السياسي و الظلم الاجتماعي و الارهاب الفكري ، فكلها تسحق الإنسان وتكبل طاقاته ، و تقتل مواهبه و تطفى فيه روح الفعالية ، و الابداع ، و تجعله مشلولاً عاجزاً عن الإعمار و البناء . فالوثنية و الظلم و الاستبداد عوائق تحول دون عملية النهوض و الشهود الحضاري .

لذلك ، فإن قيم التوحيد ، و العدل ، و الحرية وغيرها كانت من أهم القيم التي صاغ القرآن شخصية الإنسان المسلم و فقها للقيام بأعباء الاستخلاف

---

<sup>3</sup> ( استخلاف الإنسان في الأرض - د. فاروق أحمد دسوقي - ص 14 .

الديني ، والسياسي والاجتماعي ، والاقتصادي (٤) ، وهو التحرير الذي عبر عنه ربيعي بن عامر أمام قائد الفرس رستم بقوله «> الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام >> (٥) .

وكلما كانت هذه القيم الدينية صحيحة ، تعكس المراد الإلهي والتصوير القرآني لحقيقة الوجود الإنساني ، كلما كان أثرها قويا وواضحا في الحركة العمرارية ، وهذا هو الحال في الحضارة الإسلامية التي جمعت بين العلم والوحي ، والايمان والعمران والروح والمادة والدنيا والآخرة في انسجام عجيب لهذه الثنائية ، ارتقى فيها الإنسان إلى أعلى مستويات الاستخلاف في الأرض في تاريخ البشرية كلها .

وبذلك لم تعرف الأمة الإسلامية - خلال مرحلة ازدهارها - فكرة الصراع بين العلم والدين ولم تشهد - ما شهدته أوروبا - من عدااء حاد بين العلماء ورجال الدين ، ولم يعرف تاريخها تلك الفصول الدامية من

---

(٤) راجع : دراسات إسلامية لسيد قطب ، ص 11 وما بعدها ، وآثار محمد البشير الابراهيمي ، ج4 - ص 355 - وحول إعادة تشكيل العقل المسلم لعقاد الدين خليل ص 129 .

(٥) السيرة النبوية . ابن هشام . ج2 ، ص 226 .

مطاردة العلماء ، ومحاكمتهم وحرقتهم أحياء ، وبالتالي لم يحدث أبدا انفصال بين العلم والدين كما هو الحال في الغرب المسيحي الذي ناصبت فيه الكنيسة بمعتقداتها المنحرفة العدا للعلم ، ووقفت بشدة في وجه التطور الطبيعي للحياة ، فكانت النتيجة أن الإنسان الغربي أراحها من طريقه بقوة ، وأزاح معها الدين لاعتقاده أنه هو والكنيسة شيء واحد . فالإسلام الذي أثمر الحضارة الإسلامية يعتبر الوحي والعلم وجهان لعملة واحدة ، وهذا هو التصور الذي قامت عليه كل الجهود الحضارية للمسلمين ، وهو بذلك يختلف اختلافا جذريا عن المسيحية .

أما إذا جرّد الإنسان قيم الوحي من محتواها الحقيقي وأفرغها من معانيها التي تحمل في ثناياها طاقة التغيير والبناء واكتفى منها بمجرد المعاني الظاهرة - فإنها في هذه الحالة - تفقد فعاليتها . وعليه ، فمدلول الصلاح المفضي إلى التمكين في الأرض الوارد في قوله تعالى ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾ (٦) لا يقتصر على التحقق من بعض الشروط كإقامة الشعائر التعبدية ، وترويض النفس على الطاعات ، وأخذها بأساليب الجهاد النفسي لتزكيها ، ومن ثم

---

<sup>6</sup> ( الانبياء - 105 .

الانسحاب من الحياة ، واستبعاد السعي في الأرض ، ومكابدة الواقع للتعرف على قوانين الله لتسخيرها والاسهام بفعالية في تقدم البشرية .

فالاقتصار على هذا الجانب الضيق في فهم معنى الصلاح فيه إساءة لكتاب الله وعقم في فهم مقاصده ، وإجحاف في إدراك أهدافه ، لأن الواقع الإسلامي الراهن يرفضه ، وكذلك تاريخ المسلمين في عصرهم الزاهر ، وسيرة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ومن سار على هديهم والذين >> لم يستطيعوا تعمير الحياة ، وقيادة البشرية وإنتاج الحضارة إلا بالمكابدة وتحصيل العلم ، والتفوق على عصرهم بما حققوا من شروط نفسية إيمانية ، وما أعدوا من مقومات مادية ، وما حصلوا من أفكار ومعارف علمية . ذلك أن تعمير الأرض لا يمكن أن يتحقق بتزديد القيم والوصايا والمواعظ وحدها - وهي شروط لا بد منها - بعيدا عن اكتشاف قوانين التزقي العلمي ، ومعرفة السنن التي تحكم الحياة والأحياء >> (7).

وعند هذا الحد نستدرك ونقول : قد يحتاج بعضهم على هذا الحكم ويحاول أن يثبت أن بإمكان الإنسان أن يعمر الأرض ويبني الحضارة دونما حاجة إلى هذه القيم كما هو الحال بالنسبة لبعض الحضارات القديمة كال يونانية والرومانية ، والحضارة الغربية المعاصرة التي قامت على

---

(7) تأملات في الواقع الإسلامي - عمر عبيد حسنة - ص 83 .

أساس مادي في أهدافها وغاياتها ، واستبعدت تماما الدين من حركتها الحضارية !! .

والحق أن هذه الحضارات وغيرها لم ينطلق بناتها من فراغ ، فقد أثبتت الدراسات التاريخية أن الفكرة الدينية كانت دائما هي المحرك الأساسي الذي حفز الإنسان إلى الإعمار (٨) ، بغض النظر عن صلاح هذه الفكرة أو فسادها . فكل الحضارات القديمة كانت >> تقوم على تعبد يسد شعور النفس البشرية بالخضوع إلى قوة أعلى منها << (٩) لأن التدين طبيعة عميقة في الكيان الإنساني والفترة البشرية ، وهذا ما أكدته الدراسات التي تناولت كل الحضارات الإنسانية كالإغريقية والرومانية

---

(٨) راجع في موضوع أهمية الفكرة الدينية في قيام الحضارات : قصة الحضارة لـ " ويل ديورانت Will Durant " ، القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة (1973-1975) ج1 ص 3 وما بعدها . ومستقبل الحضارة لـ "جان دي بويس Jean de Beus " ، ترجمة : المعني المعيطي - القاهرة - دار الكرنك - 1961 ص 19 وما بعدها . و شروط النهضة لمالك بن نبي ، ترجمة : عمر مسقاوي وعبد الصبور شاهين (بيروت . دار الفكر . ط3. 1967) ص 70 وما بعدها . وأسس مفهوم الحضارة في الإسلام لسليمان الخطيب - ص 67 وما بعدها .

(٩) آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي - ج1 - ص 259 .

والفينيقية والأشورية و المصرية القديمة وغيرها . وحتى الحضارة الغربية - على الرغم من طابعها المادي والعقلاني - يذهب أرنولد توينبي إلى أن أصولها الأولى التي انطلقت منها وبنيت عليها أركانها هي المسيحية و يربطها ربطا محكما بالكنيسة الكاثوليكية ، و يقرر أنها الحضارة الوحيدة القادرة على المحافظة على الشرارة الإلهية الخلاقة (10) .

فالفكرة الدينية متمثلة في ذلك التصور الذي يحمله الإنسان عن حقيقة الوجود والكون هي أساس كل الجهود الحضارية التي يبذلها لإعمار الأرض ، وأساس كل التغيرات الإنسانية الكبرى لكونها القاعدة الحقيقية للبناء الفكري للحضارة والدافع القوي الذي يضيء على الانجازات الحضارية الفاعلية والتقدم ، من هنا كانت الفكرة الدينية دائما << بمثابة حجر الزاوية في صنع الحضارات >> (11) ، وهو ما أكده مالك بن نبي في قوله << فالحضارة لا تظهر في أمة من الأمم إلا في صورة وحي يهبط من السماء ويكون للناس شرعة ومنهاجا ... فكأنما قدر للإنسان

---

<sup>10</sup> ( مقدمات في فهم الحضارة الإسلامية - محمد علي ضناوي - ص 12

<sup>11</sup> ( أسس مفهوم الحضارة في الإسلام - سليمان الخطيب - ص 72 .



ألا تشرق عليه شمس الحضارة إلا حيث يمتد نظره إلى ما وراء حياته الأرضية >> (12) .

وعندما تكون هذه الفكرة الدينية فاسدة ، غير مبنية على أساس صحيح من اتصالها بالوحي السماوي الذي يحمل في ذاته عوامل البقاء والقدرة على شحن النفس الإنسانية بأسباب التقدم المادي والترقي الروحي معا ، تفقد هذه الفكرة القدرة على التأثير ، وتتوقف عن إمداد الإنسان بالزاد النفسي لمواصلة المسيرة في توازن وتنسحب - من ثم - من حركة الاستخلاف و التعمير ، وتنكمش في زاوية ضيقة من زوايا اهتمام الإنسان ، مما يؤدي إلى تضخم الجانب المادي على حسابها فتصاب حركة الحضارة بالارتباك والاختلال .

وقد جرب الإنسان أن يكفر بالوحي ويستبعد كل القيم الدينية ويتخذ من العقل والحواس إلهًا ، ويجعل من العلم سبيلا وحيدا لاكتساب المعرفة الإنسانية ، لكنه اكتشف بعد مدة أن ذلك جعله أسير عقله الذي لم يمكنه من الإلمام بأطراف المعرفة كلها وأن هذا العقل لم يقدم له سوى علم محدود لا يرضي طموحه ، ولا يسد الفراغ المعرفي الذي يحسه تجاه أسرار الحياة والوجود و بقيت روحه - التي هي جزء أصيل من ذاته -

---

(12) شروط النهضة - مالك بن نبي - ص 51 .

بحاجة إلى إشباع ، وهو لا يستطيع أن يوفر لها الاستقرار  
والطمأنينة إلا إذا وصلها بمعبود قوي تركز إليه ، وتستمد منه  
تفسيرا غيبيا لما عجز العقل والحواس عن إدراكه . لذلك وصف الله  
سبحانه وتعالى هؤلاء الماديين الذين يحرصون اهتماماتهم في عالم المادة  
ويغفلون الروح ، بأنهم لا يحصلون من كدهم وسعيهم إلا على علم  
الظاهر ﴿ يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون ﴾  
(<sup>13</sup>) .

يقول سيد قطب في تفسير هذه الآية - مؤكدا ما ذهبنا إليه - :  
>> وظاهر الحياة الدنيا محدود صغير ، مهما بدا للناس واسعا شاملا  
يستغرق جهودهم بعضه ولا يستقصونه في حياتهم المحدودة ، والحياة  
كلها طرف صغير من هذا الوجود الهائل تحكمه نواميس وسنن  
مستكنة في كيان هذا الوجود وتركيبه والذي لا  
يتصل قلبه بضمير ذلك الوجود ، ولا يتصل حسه بالنواميس  
والسنن التي تصرفه يظل ينظر وكأنه لا يرى ، ويبصر الشكل  
الظاهر ، والحركة الدائرة ولكنه لا يدرك حكمته ولا يعيش بها ومعها .  
وأكثر الناس كذلك ، لأن الإيمان الحق هو وحده الذي يصل ظاهر الحياة

(<sup>13</sup>) الروم - 7 .

بأسرار الوجود ، وهو الذي يمنح العلم روحه المدرك  
لأسرار الوجود >> (14).

والحضارة الغربية الحديثة ، من أكثر الحضارات تجسيدا لهذا الاختلال  
بين الجانب المادي والروحي ، حيث طغت على جميع مظاهرها الصبغة  
المادية الجافة التي ورثتها عن الحضارتين اليونانية والرومانية وزادت عليها  
ما تمخض عنه الصراع بين رواد النهضة الحديثة ورجال الكنيسة من عداوة  
شديد للدين ، وتنصل من كل قيوده ن وتحرر تام من جميع التزاماته  
، و عزله عن ميدان الحياة ، والاعلان عن انتصار العقل وسيادته  
على كل شيء .

إن إقصاء الدين وتأثيراته من الحياة اليومية للفرد الغربي قد أدى إلى  
تحلل تام من القيود الأخلاقية ، والاعتبارات الدينية ، وانطلاق عارم  
للشهوات من معاقلها ، وتمزيق لشبكة العلاقات الاجتماعية ، وتفكك  
عرى الأسرة وجفاف العواطف الإنسانية ، وميل الناس الجارف إلى اكتساب  
المال ، والعبّ من اللذات الحسية يحدوهم شعور قوي بضرورة اغتنام كل  
فرص الحياة والاستمتاع بها قدر المستطاع لإحساسهم بمحدودية أعمارهم  
وارتباط وجودها بالحياة الدنيا فقط .

---

<sup>14</sup> ( في ظلال القرآن - سيد قطب - ج 5 - ص 2758 ، 2759 .

و على الرغم من كل ما أحاط به الإنسان الغربي نفسه من وسائل الرفاهية و الترف و ما جمع من ثروة ، و ما نال من متع إلا أن النتيجة لم تكن سعادة واطمئنانا و استقرارا ، وراحة بال ، و إنما كانت - على العكس من كل ذلك - خواء روحيا رهيبا ولد أمراضا عصبية و نفسية و إقبالا جماعيا على الانتحار و إصابات كثيرة بالجنون و انتشارا واسعاً لعيادات الطب النفسي و غيرها من المظاهر الغريبة التي تشير إلى الجوع الروحي ، و توحى بما يمكن أن يؤول إليه مصير الإنسان عندما يتمرد على ذاته .

إن هذه الحضارة التي سارت شوطا بعيدا في تطبيق المنهج العلمي التجريبي على الحياة الإنسانية ، قد أغفلت تماما الخصائص الإنسانية الأصلية التي تفرق الإنسان عن الآلة و الحيوان (15) و أسقطت من حسابها أنها تتعامل مع كائن حي ذي شقين متكاملين هما الجسد و الروح ، و لا يمكنه أن يحس بالتوازن و الانسجام إلا إذا كان تقدمه المادي مساو و مواز لترقيه الروحي .

---

15 ( الإسلام و مشكلات الحضارة - سيد قطب - ص 8،7 .

إن هذه المأساة الروحية التي يعيشها الإنسان الغربي المعاصر ، دفعت كثيرا من المفكرين الغربيين (16) الذين تنبهوا إلى خطورة هذه الفجوة في حياتهم ، إلى الاهتمام بالإنسان و أشواقه الروحية ، و ميوله الدينية و تغذية هذا الجانب فيه ، معترفين أن الحضارة الغربية - على الرغم من تقدمها المادي الهائل في جميع المجالات - إلا أنها عجزت عجزا فاضحا عن تحقيق إنسانية الإنسان باعتباره مركز الوجود و غاية الحضارة .

ومن أشهر هؤلاء " ألكسيس كاريل " في كتابه [ الإنسان ذلك المجهول ] الذي يقول فيه : >> إن الحضارة العصرية تجد نفسها في موقف صعب لأنها لا تلائمنا ، لقد أنشئت دون أية معرفة بطبيعتنا الحقيقية ، إذ أنها تولدت من خيالات الاستكشافات العلمية ، وشهوات الناس

---

(16) راجع في هذا الصدد : حوار الحضارات لـ "روجيه غارودي" . و حوار الفكر الديني والفكر المادي لـ " أحمد زكي تفاعلة " . والفن والعلم في الفلسفة المعاصرة لـ "إيميل بوترو" . و تدهور الحضارة الغربية لـ "أزوالد شبنجلر" . وفلسفة الحضارة لـ "ألبرت شفيترز" . و تهافت العلمانية لـ "عماد الدين خليل" . وسقوط العلمانية لـ "أنور الجندي" . والاسلام في مفترق الطرق لـ "محمد أسد" .

وأهوائهم ونظرياتهم ورغباتهم . وعلى الرغم من أنها أنشئت بمجهوداتنا إلا أنها غير صالحة بالنسبة لحجمنا وشكلنا >> (17) .

ثم يضيف - في موضع آخر - مشخصا بوضوح تام أزمة الحضارة الغربية المعاصرة قائلا >> يجب أن يكون الإنسان مقياسا لكل شيء ولكن الواقع هو عكس ذلك . فهو غريب في العالم الذي ابتدعه ، إنه لم يستطع أن ينظم دنياه بنفسه ، لأنه لا يملك معرفة عملية بطبيعته ... ومن ثم فإن التقدم الهائل الذي أحرزته علوم الجماد على علوم الحياة هو إحدى الكوارث التي عانت منها الإنسانية ... فالبيئة التي ولدتها عقولنا واختراعاتنا غير صالحة لنا لأننا ننحط أخلاقيا وعقليا ... إن الجماعات والأمم التي بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هي على وجه الدقة الجماعات والأمم الآخذة في الضعف ، ذلك لأن مدينتنا من شأنها أن تجعل الحياة نفسها مستحيلة >> (18) .

إن هذه الأزمة الخانقة التي تعيشها الحضارة الغربية تجعلنا نؤكد أن الانسان لا يمكنه أن يحقق وظيفة الاستخلاف و يعمر الأرض ويبني الحضارة إذا أقصى قيم الوحي واعتمد على العلم وحده . وهذه هي

(17) ( الإنسان ذلك المجهول - ألكسيس كاريل - ص 38 .

(18) ( الانسان ذلك المجهول - ألكسيس كاريل ، ص 43 ، 44 .

الحقيقة التي أكدها القرآن الكريم حينما ربط ربطا محكما بين التزام قيم الوحي والسعي في الأرض ، منها في ذلك إلى ضرورة إيجاد توازن دائم بين الانجازات المادية والأشواق الروحية ، لذلك فإن القيم الاسلامية باعتبارها وحيا إلهيا محفوظا لم يعتره التبديل والتحريف - هي الوحيدة القادرة اليوم على إيجاد حل ناجح لأزمة الانسان المعاصر المتمرد على الدين لكونها لا تتعارض مع الفطرة ولا مع العلم : >> إن الإسلام هو - وحده - القادر على إنقاذ البشرية مما يحدق بها من أخطار ماحقة ، تدلف إليها مقودة بسلاسل الحضارة المادية البراقة . وهو - وحده - الذي ينسق بين خطاها في الابداع المادي وخطاها في الاستشراف الروحي . وهو - وحده - الذي يملك أن يقيم لها نظاما واقعا للحياة يتم فيه هذا التناسق الذي لم تعرفه البشرية قط إلا في ظل النظام الاسلامي - وحده - على مدى التاريخ >> (19) .

والخطاب القرآني يتناول الانسان ككل متكامل لأنه يرفض التجزئة والفصل وإقامة الحواجز بين مساحات التجربة البشرية الواحدة ، وهو - في الوقت الذي يوجه فيه عقل الانسان وحواسه إلى قلب العالم والطبيعة ويدفعه إلى بذل جهده في التنقيب عن السنن والنواميس في أعماق التربة

---

19 ( المستقبل لهذا الدين - سيد قطب - ص 103 .

يربطه دائما بأصل وجود هذا العالم ، ويقوي علاقاته بخالق الطبيعة حتى يثمر سعيه علوا حضاريا ماديا مساو تماما لعلوه الروحي .

ومن النصوص القرآنية الكثيرة التي تتجلى فيها هذه الدعوة إلى التوازن بين القيم الروحية والمادية قوله تعالى ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين ﴾<sup>(20)</sup>. وقوله تعالى ﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب ﴾<sup>(21)</sup>.

ففي هاتين الآيتين نلمح هذا الارتباط والتلازم والتداخل بين عمليتي التزقي الروحي و التزقي المادي ، ومنه نستوحي أن كل انفصال يحدث بينهما سيؤدي - لا محالة - إلى اختلال في حركة الانسان وانحراف في مساره الاستخلافي يفضي إلى الفساد في الأرض . والآيتان صريحتان في التعبير عن ذلك . فقوله تعالى ﴿ وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ﴾ و ﴿ فاستغفروه ثم توبوا إليه ﴾ دعوة إلى

20 ( القصص - 77 .

21 ( هود - 61 .



الاهتمام بالأشواق الروحية والقيم الإيمانية ، وقوله عز وجل ﴿ ولا تنس نصيبك من الدنيا ﴾ و ﴿ هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها ﴾ دعوة موازية لها لعمارة الأرض في جانبها المادي والانتفاع بشرواتها والاستمتاع بزيبتها .

وهكذا ، فإن « منطق التوازن الحركي الذي يرفض الانحراف أو السكون هو القاعدة التي نتلمسها في القرآن الكريم بوضوح من خلال عدد كبير من آياته اليبينات و التي تكفل نموا سليما لأية حضارة تستطيع أن تحافظ على نقطة التوازن بين تجربتي الروح والمادة ، ولا تنحرف باتجاه إحداهما مهملة الأخرى ... » (22).

وقد استطاعت الحضارة الإسلامية - في عصورها الزاهرة - ان تجسد هذا التوازن بين القيم المادية وقيم الوحي في أروع صوره ، و أن تحقق بذلك إنسانية الإنسان الذي كرمه الله ، و أسجد له الملائكة ، و حمله الأمانة ، وجعله مستخلفا في الأرض ، و أن تجعل إنجازاتها كلها في خدمته .

(22) حول إعادة تشكيل العقل المسلم - د. عماد الدين خليل - ص 124 .

وهي حقيقة لا تحتاج إلى برهان ، فقد اعترف بها كل المنصفين من الباحثين والمؤرخين الذين عجبوا للتناسق الرائع الذي أحدثه المسلمون الأوائل بين الروح والمادة طوال مسيرتهم الحضارية .

ولعل ذلك ما حدا بـ : "هـ . ج . ويلز" - أحد كبار الفلاسفة الغربيين - إلى التأكيد على حاجة الحضارة إلى قيم الوحي على أن تكون قيما متصلة الأسباب بخالق الكون ، منزهة عن تدخلات البشر وأهوائهم وفي ذلك يقول >> إن كل دين لا يسير مع المدنية في كل طور من أطوارها فاضرب به عرض الحائط ولا تبال به لأن الدين الذي لا يسير مع المدنية جنبا إلى جنب ، فهو شر مستطير على أصحابه ، يجرهم إلى الهلاك ، وإن الديانة الحقبة التي وجدتها تسير مع المدنية أنى سارت هي الديانة الإسلامية . وإذا أراد الإنسان أن يعرف شيئا عن هذا ، فليقرأ القرآن وما فيه من نظريات علمية ، وقوانين وأنظمة لربط المجتمع ، فهو كتاب ديني علمي ، اجتماعي تهديبي ، خلقي تاريخي ، وكثير من أنظمته و قوانينه تستعمل حتى وقتنا الحالي وستبقى مستعملة إلى قيام الساعة >> (23) .

---

<sup>23</sup> ( دراسات إسلامية معاصرة - أنور الجندي - ج 1 - ص 180 .

وهكذا نختتم حديثنا عن دور الوحي في تحقيق وظيفة الاستخلاف  
مؤكدین أن تعمير الأرض والقیام بأعباء الاستخلاف يتطلب دائماً  
الالتزام بقیمة الوحي الصحیحة كما أوحى بها الله سبحانه وتعالى ، وبلغها  
رسوله علیه الصلاة والسلام ، كما أن السعي في مناکب الأرض  
يكون بتحصيل العلم وفقه قوانین التسخیر و علیه فالعلم والوحي أمران  
أساسیان للاستخلاف ، و مرتبطان و متلازمان ، إذا اختل أحدهما  
انحرفت حركة الإنسان عن جادة الصواب ، و ذاق و بال أمره ، وعجز  
عن تحقيق إنسانيته التي هي - في الأصل - الهدف الأول والغاية السامية  
لكل الحضارات الإنسانية .



## الخاتمة

ومما سبق تبين لنا أن الإنسان المسلم مأمور وفق النصوص القرآنية بالقيام بوظيفة الاستخلاف كما حددها له الله سبحانه وتعالى ، وأن الوفاء بحقوقها وأدائها على الوجه الأكمل هو الغاية السامية التي خلق من أجلها والحكمة البالغة التي وجد لها ، وهذه الوظيفة - على الرغم من ثقل تبعاتها وعظيم واجباتها - تكريم رباني خصّ به الله سبحانه وتعالى الإنسان دون غيره من المخلوقات ، وشرفه بحملها ، وأخضع له بسببها الكون جميعا وأطلق يده فيه ليمارس عليه سيادته المطلقة .

كما تبين لنا أيضا أن الارتباط بالله سبحانه وتعالى باعتباره مصدر الوجود كله ، والإنابة إليه وإفراده بالعبادة لا يتعارض مع القيام بتعمير الأرض وبناء الحضارة ، بالسير في مناكبها ، واستغلال ثرواتها ، والاستفادة من خيراتها ، والتمتع بطيباتها ، بل إن العبادة هي أساس الاستخلاف وقوام الحركة الحضارية ، والوحي هو المنهج الرباني الذي تتحرك العملية الاستخلافية في دروبه ، وتستنير بتوجيهاته ، وتلتزم ضوابطه ، ويحمي الإنسان من كل انحراف قد يعيقه عن أداء أمانة الاستخلاف على وجهها الأكمل ، سواء تمثل هذا الانحراف في تضخيم الجانب الروحي والانكفاء على الذات والهروب من ميدان الحياة كما حدث للرهبانية المسيحية ، أو تغليب الجانب المادي والانقياد لنداء المطالب الجسدية كما حدث لليهودية

وهو الأمر الذي نبهنا إليه القرآن الكريم محذرا المسلمين من مغبة الوقوع فيه وملحا على ضرورة التزام الوسطية والاعتدال في حياتنا كلها .

وخلصنا أيضا إلى أن العلم هو الشرط الضروري الذي تتحقق به وظيفة الاستخلاف في الأرض ، وأنه من المستحيل أن تعمر الأرض وتبنى الحضارة إذا لم يسع الإنسان إلى تفجير طاقاته العقلية ، واستنفارها لممارسة البحث والكشف والتنقيب وراء الظواهر الطبيعية ، لأن العلم هو مفتاح الحضارة .

وعليه ، فإن الإنسان المسلم اليوم مطالب بإدراك وظيفته التي خلق من أجلها ، ومعرفتها على أكمل وجه ، والتسلح بهداية الوحي ورسالة العلم لكي يتمكن من تأسيس حضارة إسلامية جديدة تكون هي البديل الصالح للحضارة الغربية الحديثة التي غرقت في أوحال المادية الجافة ، وتاهت بالإنسان في ظلمات الإلحاد والإباحية ، فلطالما تعطشت البشرية - وهي تتجرع كؤوس الظلم ومرارة الاستبداد - إلى من يشفي غليلها بنور الإيمان وينقذها من الجفاف الروحي الذي يعصف بها وبخاصة ونحن على أعتاب قرن جديد ، ربما سيكون قرن التدين - كما تنبأ بذلك برناردشو - والعودة إلى الفطرة السليمة ، ونحسب أن الإنسان المسلم هو وحده الذي يملك مقومات إسعاد البشرية وقيادتها نحو بر الأمان .

## قائمة المصادر والمراجع

- القرآن الكريم

### أ - الكتب

(أ)

- 1 - آثار الشيخ محمد البشير الإبراهيمي - ج 1 - ش.و.ن.ت - الجزائر . ط 1 - 1398 هـ - 1978 م .
- 2 - إحياء علوم الدين - أبو حامد الغزالي - دار المعرفة - بيروت - لبنان 1402 هـ - 1982 م .
- 3 - آدم عليه السلام - البهي الخولي - مطبعة وهبة - القاهرة - 1974 م .
- 4 - إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم . محمد العمادي أبو السعود المطبعة المصرية . القاهرة . مصر . 1347 هـ .
- 5 - أزمة العقل المسلم . د. عبد الحميد أبو سليمان . دار الهدى - عين مليلة - الجزائر - ط 2 - 1992 م .
- 6 - أزمنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق . د. أحمد محمد كنعان . سلسلة كتاب الأمة - رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية - قطر محرم 1411 هـ .
- 7 - أسس مفهوم الحضارة في الإسلام - سليمان الخطيب - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - د.ت .
- 8 - الأسس الإسلامية للعلم . د. محمد معين صديقي - المعهد العالمي للفكر

- الإسلامي - 1409 هـ - 1989 م .
- 9 - الإسلام ومشكلات الحضارة . سيد قطب . دار الشروق - بيروت  
لبنان . د.ت .
- 10 - الإسلام في مفترق الطرق . محمد أسد . دار الاعتصام - القاهرة -  
مصر . د.ت .
- 11 - الإسلام يقود الحياة - محمد باقر الصدر - مطبعة الخيام - قم . إيران  
ط1 - 1399 هـ .
- 12 - استخلاف الإنسان في الأرض - د . فاروق أحمد دسوقي - دار الدعوة  
للطبع والنشر والتوزيع - الإسكندرية - مصر . د.ت .
- 13 - الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده . جمع وتقديم : محمد عمارة  
المؤسسة العربية للدراسات - بيروت - لبنان - 1972 م .
- 14 - آفاق قرآنية . د. عماد الدين خليل . دار العلم للملايين - بيروت -  
لبنان - ط1 - يوليو 1978 م .
- 15 - أنوار التنزيل وأسرار التأويل . ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر  
البيضاوي - دار الفكر - بيروت - لبنان - د.ت .
- 16 - الإنسان ذلك الجهول - ألكسيس كاريل - ترجمة : شفيق أسعد فريد  
مؤسسة المعارف - بيروت - لبنان - ط2 - 1977 م .
- 17 - الإنسان في القرآن - عباس محمود العقاد - المجموعة الكاملة - ج6 -  
دار لكتاب اللبناني - بيروت - لبنان - 1974 م .



18 - الإنسان والكون في الإسلام - أبو الوفا الغنيمي التفتازاني - دار الثقافة للطباعة والنشر - القاهرة - 1975 م .

19 - الإنسان بين المادية والإسلام . محمد قطب . دار الشروق . بيروت . لبنان

20 - الإيمان والحياة - يوسف القرضاوي - مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان ط 12 - 1408 هـ - 1985 م .

### ( ت )

21 - تأملات - مالك بن نبي - دار الفكر - دمشق - سوريا - د.ت .

22 - تأملات في الواقع الإسلامي - عمر عبيد حسنة - المكتب الإسلامي بيروت - لبنان . ط 1 - 1411 هـ - 1990 م .

23 - التحرير والتنوير - محمد الطاهر بن عاشور - الدار التونسية للنشر تونس - 1984 م .

24 - تدهور الحضارة الغربية . إزوالد شبنجلر . مكتبة الحياة - بيروت لبنان - 1401 هـ - 1981 م .

25 - التربية الإسلامية ومدرسة حسن البنا . د. يوسف القرضاوي . الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية - دار القرآن الكريم - بيروت لبنان - 1400 هـ - 1980 م .

26 - تفسير المنار - محمد رشيد رضا - دار المنار - 14 شارع الإنشاء القاهرة - مصر - ط 3 - 1373 هـ .

27 - تفسير القرآن العظيم - عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير - دار الأندلس - بيروت - لبنان - 1983 م .

28 - تفصيل النشاطين وتحصيل السعادتين - الراغب الأصفهاني - تحقيق : عبد المجيد النجار - دار الغرب الإسلامي - بيروت - لبنان - 1988 م

29 - تهافت العلمانية - د. عماد الدين خليل - مؤسسة الرسالة - بيروت لبنان - 1401 هـ - 1981 م .

### (ج)

30 - جامع البيان في تفسير القرآن - أبو جعفر محمد بن محمد جرير الطبري - دار الفكر - بيروت - لبنان - 1398 هـ - 1978 م .

31 - الجامع لأحكام القرآن - شمس الدين محمد بن أحمد القرطبي - دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان - ط1 - 1386 هـ - 1967 م .

### (ح)

32 - حضارة العرب - غوستاف لوبون :ترجمة عادل زعيتر - دار إحياء الكتب العربية - القاهرة - مصر - ط3 - 1956 م .

33 - حول إعادة تشكيل العقل المسلم . د. عماد الدين خليل - سلسلة كتاب الأمة - رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية - قطر - ط1

### (خ)

34 - خلافة الإنسان وشهادة الأنبياء - محمد باقر الصدر - سلسلة الإسلام يقود الحياة - رقم 3 - مطبعة الخيام - قم - إيران - 1399 هـ .

(د)

- 35 - دراسات إسلامية - سيد قطب - دار الشروق - بيروت - لبنان - ط 5 -  
1402 هـ - 1982 م .
- 36 - دراسات إسلامية معاصرة - أنور الجندي - منشورات المكتبة العصرية  
صييدا - بيروت - لبنان - ط 1 - 1401 هـ - 1986 م .
- 37 - دراسة في البناء الحضاري - د. محمود محمد سفر - سلسلة كتاب الأمة  
- رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية - قطر ط 1 - رجب 1409 هـ
- 38 - الدين - د. عبد الله دراز - مطبعة السعادة - القاهرة - 1389 هـ .

(ر)

- 39 - روح الحضارة الإسلامية - محمد الفاضل بن عاشور - دار  
العالية
- للكتاب الإسلامي - الرياض - السعودية - ط 2 - 1413 هـ - 1992 م
- 40 - روح الدين الإسلامي - عفيف عبد الفتاح طيارة . دار العلم للملايين  
بيروت - لبنان - ط 19 - 1979 م .

(س)

- 41 - السيرة النبوية - ابن هشام - حققها وضبطها : مصطفى السقا  
وآخرون - دار القلم - بيروت - لبنان - د.ت .

(ش)

- 42 - شروط النهضة - مالك بن نبي - ترجمة : عبد الصبور شاهين - دار الفكر - بيروت - لبنان - د.ت .

(ع)

- 43 - العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر المعروف بتاريخ ابن خلدون - عبد الرحمان بن خلدون - دار الكتاب اللبناني - بيروت - لبنان - 1961 م .
- 44 - عيون البصائر - محمد البشير الإبراهيمي - الشركة الوطنية للنشر والتوزيع - الجزائر - د.ط.د.ت .

(ف)

- 45 - الفقه الأكبر - أبو حنيفة النعمان - شرح الملا علي القاري الحنفي - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ط 1 - 1404 هـ - 1984 م .
- 46 - الفكر الإسلامي المعاصر والتحديات - منير شفيق - دار البرق للنشر - تونس - 1991 م .
- 47 - الفكر الإسلامي بين التأصيل والتجديد - زكي الميلاد - دار الصفوة - بيروت - لبنان - ط 1 - 1415 هـ - 1994 م .
- 48 - الفكر الإسلامي بين العقل والوحي . د. عبد العال سالم مكرم - مؤسسة الرسالة - بيروت - لبنان - د.ت .
- 49 - فلسفة الحضارة عند مالك بن نبي - د. سليمان الخطيب - المؤسسة

الجامعية للدراسات و النشر والتوزيع . بيروت - لبنان - ط1 -  
1413 هـ - 1993 م .

50 - فلسفة الحضارة - ألبرت شفيتزر - مطبعة مصر - القاهرة . د.ت  
51 - في ظلال القرآن - سيد قطب - دار الشروق - بيروت - لبنان - ط7  
1398 هـ - 1978 م .

### (ق)

52 - القرآن وقضايا الإنسان - د. عائشة عبد الرحمن - دار العلم للملايين  
بيروت - لبنان - ط1 - 1417 هـ - 1996 م .

53 - قصة الحضارة - ول ديورانت - لجنة التأليف والترجمة - القاهرة - مصر  
1973 م .

54 - قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر - د.  
زغلول راغب النجار - سلسلة كتاب الأمة - رئاسة المحاكم الشرعية  
والشؤون الدينية - قطر - ط1 - صفر 1409 هـ .

55 - قيمة الإنسان - د. عبد المجيد النجار - دار الزيتونة للنشر - الرباط -  
المغرب - ط1 - 1417 هـ - 1996 م .

### (ك)

56 - الكشاف عن حقائق التنزيل - جار الله محمود بن عمر الزمخشري  
تحقيق : محمد موسى - دار المصحف - القاهرة - مصر - ط2 - 1977 م

### (م)

- 57 - مبدأ الإنسان - د. عبد المجيد النجار - دار الزيتون للنشر - الرباط المغرب - ط 1 - 1417 هـ - 1996 م .
- 58 - مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير المعروف بتفسير ابن باديس - جمع وترتيب وتعليق : توفيق محمد شاهين ومحمد الصالح رمضان - دار الفكر - بيروت - لبنان - ط 3 - 1399 هـ - 1970 م .
- 59 - مجمع البيان في تفسير القرآن - أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي - دار مكتبة الحياة - بيروت - لبنان - 1986 م .
- 60 - المجتمع الإسلامي المعاصر - محمد المبارك - دار الفكر - بيروت - لبنان ط 5 - 1400 هـ - 1980 م .
- 61 - مختصر صحيح مسلم - محمد ناصر الدين الألباني - المكتب الإسلامي بيروت - لبنان - 1405 هـ - 1985 م .
- 62 - مختصر تفسير ابن كثير - اختصار وتحقيق : محمد علي الصابوني - دار القرآن الكريم - بيروت - لبنان - ط 7 - 1402 هـ - 1981 م .
- 63 - مدارج السالكين - ابن قيم الجوزية - تحقيق : محمد حامد الفقي - دار الكتاب العربي - بيروت - لبنان - 1972 م .
- 64 - مسند أحمد بن حنبل - المكتب الإسلامي - بيروت - لبنان - ط 2 - 1398 هـ - 1981 م .
- 65 - مستقبل الحضارة - جان دي بويس - ترجمة : ألمعي المعيطي - دار الكرنك - القاهرة - مصر - 1961 م .

- 66 - المستقبل لهذا الدين - سيد قطب - دار الشروق - بيروت - لبنان  
1394 هـ - 1974 م .
- 67 - معجم مفردات ألفاظ القرآن - الراغب الأصفهاني - تحقيق :  
نديم مرعشلي - دار الكاتب العربي - بيروت - لبنان - د.ت .
- 68 - مع الله في السماء - د. أحمد زكي - دار القلم - بيروت - لبنان - ط1  
1983 م .
- 69 - مفهوم الإنسان في الفكر الإسلامي - د. عمر التومي الشيباني -  
دار الجماهيرية للنشر والتوزيع والإعلان - مصراته - ليبيا - 1987 م .
- 70 - مفاهيم ينبغي أن تصحح - محمد قطب - دار الشروق - بيروت - لبنان  
- ط5 - 1408 هـ - 1989 م .
- 71 - مقاصد الشريعة الإسلامية - محمد الطاهر بن عاشور - الشركة  
التونسية للنشر - تونس - 1978 م .
- 72 - المقدمة - عبد الرحمان بن خلدون - دار القلم - بيروت - لبنان - ط5 -  
1984 م .
- 73 - مقدمات في فهم الحضارة الإسلامية - محمد علي ضناوي - مؤسسة  
الرسالة - بيروت - لبنان - ط1 - 1400 هـ - 1980 م .
- 74 - مناهج الأدلة في عقائد الملة - أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد -  
تحقيق: محمود قاسم - مكتبة الأنجلو المصرية - القاهرة - مصر - ط3 -  
1919 م .

- 75 - منهج الحضارة الإنسانية في القرآن . محمد سعيد رمضان البوطي .  
 دار الفكر - دمشق - سوريا - 1985 م .
- 76 - الموافقات في أصول الأحكام - أبو إسحاق إبراهيم بن موسى اللخمي  
 الشاطبي - مكتبة محمد علي صبيح - القاهرة - مصر - 1969 م .
- 77 - الموطأ - مالك بن أنس - برواية يحيى الليثي - إعداد : أحمد راتب  
 عرموش - دار النفائس - بيروت - لبنان - ط4 - 1400 هـ - 1980 م .

### (ن)

- 78 - نظام الإسلام : العقيدة والعبادة - محمد المبارك - دار الفكر - بيروت -  
 لبنان - ط4 - 1974 م .
- 79 - نظام الحياة في الإسلام - أبو الأعلى المودودي - مؤسسة الرسالة -  
 بيروت - لبنان - د.ت .

### (هـ)

- 80 - هذا القرآن فأين منه المسلمون ؟ محمود زكي الدين - دار البحوث  
 العلمية للنشر والتوزيع - الكويت - ط1 - 1408 هـ - 1987 م .

### ب - الدوريات

- 81 - مجلة الإنسان - ع1 - مارس 1990 - باريس
- 82 - مجلة منار الإسلام - ع2 - س3 - فيفري 1978 - الإمارات العربية  
 المتحدة .
- 83 - مجلة الموافقات - ع3 - جوان 1994 - الجزائر .



## فهرس الموضوعات

المقدمة

ص5

الفصل الأول

ص13

موقعية الإنسان في حركة الاستخلاف

الفصل الثاني

ص31

الاستخلاف : أهميته وطبيعته

الفصل الثالث

ص45

العبادة أساس الاستخلاف

الفصل الرابع

ص57

الاستخلاف بين الإيمان والعمران

الفصل الخامس

ص73

الأرض ميدان الاستخلاف

الفصل السادس

ص97

العلم مفتاح الاستخلاف

الفصل السابع

ص141

الوحي منهج الاستخلاف

ص163

الخاتمة

ص165

قائمة المصادر والمراجع

ص175

فهرس الموضوعات

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي  
أسكنه الله الفردوس  
[www.moswarat.com](http://www.moswarat.com)



# وظيفة الاستخلاف في القرآن الكريم دلالاتها وأبعادها الحضارية